الفصل الأول

صورة بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية

قبل الفتح القدسي في سنة ٥٨٣ هـ

صدى احتلال بيت المقدس في سنة ٤٩٢ هـ، في أدب الحروب الصليبية:

كان لاحتلال بيت المقدس من قبل الصليبيين، في سنة ٤٩٢ هـ، صدى كبير في أنحاء العالم الإسلامي، فقد كان الحدث جللاً، وكانت المصيبة عامة. وهنا نتساءل: هل كان لذلك صدى كبير في الشعر العربي؟

إننا عندما نستعرض شعرنا العربي، في أواخر القرن الخامس الهجري، لنتبين أثر الاحتلال الصليبي لبيت المقدس، في الشعر، نفاجأ بأن الشعر لم يكن على مستوى الحدث، لا كماً ولا كيفاً. وكان من المتوقع أن يكون لذلك الحدث أثر كبير في الشعر العربي، ولكننا نجد ألسن الشعراء، **وكأنها قد** حبست عن القول، وكأن الشعر العربي شعر انتصارات، وليس بشعر **هزائم**. وهذا ما نلمسه في الشعر العربي، قبل الحروب الصليبية أيضاً. ونتساءل **هنا**: هل يمكن أن يكون الشعراء قد قصدوا إلى ألا يقولو شعراً يعبر عن الهزائم **حتى** لا يفتوا في أعضاد الجند، وهل امتنعوا من القول في مثل هذه الأحداث **لما** يحسون به من مرارة الهزيمة، وخيبة الأمل؟ إن على الشعراء أن يرتفعوا إلى مستوى الحدث في أشعارهم نصراً كان أو هزيمة، وعليهم أن يعبروا عن إحساساتهم ومشاعرهم إزاء ذلك، بل عليهم أن يعبروا عن إحساسات الأمة ومشاعرها، فهم لسان الأمة المعبر، وأدبهم الجهادي هو أدب الأمة حقاً. إن عليهم أن يصوروا الهزيمة، وأن يكونوا لسان الأمة الداعي إلى الجهاد والتحرير، وأن يكون شعرهم ذا أثر كبير في انتشال الأمة من وهدة الهزيمة، وتخليصها مما لحق بها. وبهذا يكون شعرهم مقاوماً، معبراً عن الأمة، آخذاً بيدها، ملتزماً مدافعاً عن الدين، والأرض، والانسان، داعياً إلى الجهاد، والوحدة، والتحرير، ولا يكون شعراً باكياً يكتفي بتصوير الفاجعة، وإحساسات النفوس ومشاعرها الآنية.

إننا عندما ننظر إلى صدى الاحتلال الصليبي لبيت المقدس، في الشعر العربي، لا نجد سوى قصيدة، ومقطوعة، ولعل شعراً قيل، ولم يصل إلينا، ولعله ضاع. يذكر ابن تغري بردي أن الناس قالوا «في هذا المعنى عدة مرات»[1]. ولكنه يفسر قوله فيقول: «والمقصود أن القاضي ورفقته عادوا من بغداد إلى الشام بغير نجدة، ولا قوة إلا بالله». وإذا كان الأمر كما يذهب إليه ابن تغري بردي في تفسيره، فإن الشعراء لم يقولوا أشعاراً أخرى، غير ما وصل إلينا. وعلى الرغم من ذلك، فإن كلمة «مرات» ربما كانت التاء فيها تاء، ووقع فيها تصحيف. وإذا صح ذلك، فلعل عدداً من المراثي التي قيلت، لم تصل إلينا.

يذكر المؤرخون والأدباء أن القصيدة التي أشرت إليها، قيلت في بكاء بيت المقدس وأهلها، جاء في مقدمتها: «وقال أبوالمظفر الأبيوردي - منسوبة إليه - لما استولى الفرنج على البيت المقدس، في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة»[2]. ويذكرها النويري في باب المراثي والنوادب[3].

ويذكر أبوالفرج بن الجوزي أن الأبيوردي قال قصيدة «يصف فيها الحال». وهو ذكر ما جرى على بيت المقدس من احتلال صليبي[4].

ويذكر ابن الأثير أن الفرنج تمكنوا من البلاد، فقال الأبيوردي أبياتاً في هذا المعنى[5]. وتابعهم في ذلك أبوالفداء[6]، وابن الوردي[7]، والسيوطي[8].

ويذكر ابن كثير أن القاضي أباسعد الهروي «نظم.. كلاماً قرىء في الديوان، وعلى المنابر[9]. ولفظة «نظم» قد توحي بأن الهروي أنشأ شعراً. ولكن ابن كثير يردف قائلاً: «إن أباالمظفر الأبيوردي قال شعراً في ذلك[10]! وهو بهذا ينسب الشعر إلى الأبيوردي، مما يضعف من نسبته إلى الهروي.

---

(١) النجوم الزاهرة ٥/١٥٢.
(٢) ديوان الأبيوردي ٢/١٥٦.
(٣) نهاية الأرب ٥/١٦٤.
(٤) فضائل القدس/ ١٢٦.
(٥) الكامل ١٠/٢٨٤.
(٦) المختصر ٢/٢١١.
(٧) تتمة المختصر ٢/٢٠.
(٨) تاريخ الخلفاء/ ٣٩٤.
(٩) البداية والنهاية ١٢/١٥٦.
(١٠) المصدر نفسه ١٢/١٥٦.

ويذكر ابن تغري بردي أن الشعر للقاضي أبي سعد الهروي، ولكنه يعود ليشكك في نسبته إلى الهروي، فيقول: «وقيل هي لأبي المظفر الأبيوردي» [1].

وهي منسوبة في الديوان إلى الأبيوردي، وقد أثبتها المحقق في الشعر المنسوب إلى الشاعر[2]، وتجدر الإشارة إلى أن هذه القصيدة هي القصيدة الوحيدة في ديوانه، حول الحروب الصليبية.

يذكر أبوالفرج بن الجوزي أن الفرنج أخذوا بيت المقدس، يوم الجمعة، في الثالث والعشرين من شعبان، سنة ٤٩٢ هـ. ويذكر ان المسلمين في الشام قصدوا دار الخلافة في بغداد، يقول: «ورد المستنفرون من بلاد الشام، وأخبرونا بما جرى على المسلين. وقام القاضي أبوسعد الهروي، قاضي دمشق في الديوان ببغداد، وأورد كلاماً أبكى الحاضرين، فندب من الديوان من يمضي إلى العسكر، ويعرفهم حال هذه المصيبة، فندب لذلك أعيان العلماء، فتعللوا، واعتذروا، ووقع التقاعد». وذكر ان الفرنج قتلوا نحو سبعين الف مسلم»[3]. وتابعه ابن الأثير في ذلك، وذكر أن جماعة كثيرة من قتلى المسلمين كانوا أئمة، وعلماء، وعباداً، وزهاداً، ممن فارق الأوطان، وجاوروا بذلك الموضع الشريف. ويضيف ابن الأثير: فأورد الهروي «كلاماً أبكى العيون، وأوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمعة، فاستغاثوا، وبكوا، وأبكوا، وذكر ما دهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم، من قتل الرجال، وسبي الحريم والأولاد، ونهب الأموال، فأمر الخليفة» أن يُسيَّر عدد من العلماء، ولكنهم «عادوا من غير بلوغ أرب، ولا قضاء حاجة. واختلف السلاطين، فتمكن الفرنج من البلاد، فقال أبوالمظفر الأبيوردي، في هذا المعنى، أبياتاً»[4] وتابعهما في ذلك أبوالفداء[5]، وابن الوردي[6]، وابن تغري بردي[7]،

---

(١) النجوم الزاهرة ٥/١٥٠، ١٥١.
(٢) انظر: ديوان الأبيوردي ٢/١٥٦.
(٣) فضائل القدس/ ١٢٥، ١٢٦.
(٤) الكامل ١٠/٢٨٣، ٢٨٤.
(٥) المختصر ٢/٢١١.
(٦) تتمة المختصر ٢/٢٠.
(٧) النجوم الزاهرة ٥/١٤٩، ١٥٠.

والذهبي[1]، والسيوطي[2].

ويذكر (وليم الصوري) المؤرخ الصليبي، أنه حدثت مذبحة رهيبة، وأصبحت المدينة المقدسة «مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم»[3].

ويذهب مؤرخ صليبي آخر إلى أنه لم يستطع غداة المذبحة الرهيبة «أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين الا في صعوبة بالغة، وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه»[4]. ويشهد أحد مؤرخيهم، وكان من الصليبيين الذين دخلوا بيت المقدس، بأن قومه كانوا «يجوبون الشوارع، والميادين، وسطوح البيوت ليروا غاليلهم من التقتيل، وكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ»[5].

ويصف صاحب «أعمال الفرنجة» المذبحة المروعة تلك[6].

لقد أشرت إلى بعض معالم المصيبة العظمى التي تمثلت باحتلال بيت المقدس، لنرى مدى صداها في بلاد الإسلام من ناحية، وفي الشعر العربي من ناحية أخرى.

يذكر أبوالفرج بن الجوزي ما يعبر عن أحوال المسلمين السياسية السيئة التي كانوا يعانون منها، وتتمثل في ضعفهم، وتخاذلهم، وانقسامهم. وكأن المسلمين في العراق لا يدرون عما يجري في الشام، إلى أن جاء المستنفرون من الشام إلى بغداد، ولكن المستنفرين عادوا دون جدوى. ويعود ذلك إلى

---

(١) العبر ٥/١٨٤.

(٢) تاريخ الخلفاء/ ٣٩٤.

(٣) انظر: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ٢/ ٢٢٩.

(٤) انظر: تاريخ الحروب الصليبية - لبيمان ١/ ٤٠٤ - ٤٠٥، الحركة الصليبية/ ٢٣٧، ١٣٨، ٢٤١، الجبهة الإسلامية/ ١٥٠، الحروب الصليبية الأولى/ ١٧٩، ١٨٠، الحياة السياسية في بلاد الشام/ ١٢٩، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية/ ١١٣، ١١٤.

(٥) انظر: حضارة العرب - غوستاف لوبون/ ٣٢٥.

(٦) ١١٨ - ١٢٠. وانظر في الحديث عن المذبحة: ذيل تاريخ دمشق/ ١٣٧، الكامل ١٠/ ١٠٥، زبدة الحلب ٢/ ١٤١ - ١٤٧، الحركة الصليبية ١/ ٢٣٨ - ٢٤٦.

الخلافات بين السلاطين وانقسامهم، وتنازعهم[1].

لقد كان السلاجقة والفاطميون يتنازعون على بلاد الشام، ومنها بيت المقدس. وكانت فلسطين تابعة للفاطميين، ثم توجه «أتسز بن أبق الخوارزمي التركماني» بطلب من «ملكشاه السلجوقي»، إلى فلسطين، فاستولى على بيت المقدس[2]، ولكن الفاطميين عادوا، وحاصروه، وملكوه بالأمان في سنة ٤٨٩ هـ، وبقيت المدينة بأيديهم إلى أن احتلت من قبل الصليبيين[3].

ولم يكن صدى هذا كله، في الشعر العربي، إلا صدى باهتاً، وقد اقتصر هذا الشعر على قصيدة ومقطوعة، كما تقدم.

يعد هذا الشعر الذي وصل إلينا لوناً من رثاء المدن. وقد شاعت هذه الظاهرة في فترة الحروب الصليبية، في المشرق الإسلامي، كما كانت شائعة في مغربه. وهي ظاهرة جديرة بالاهتمام والدراسة. ومما يمثل هذه الظاهرة الأدبية، رثاء بيت المقدس وأهلها، كما يبدو في هذه القصيدة.

تصور هذه القصيدة الفاجعة المذهلة التي حلت بالمسلمين، وتصور الحالة الحزينة التي وصلوا إليها. ولقد جعل الشاعر شعره لوناً من الأدب الباكي، وهو يريد بذلك أن يستثير من استنجد بهم، فيصور الواقع الذي نشره الاحتلال. ولكن الأدب الباكي لا يعيد كرامة، ولا يحرر أرضاً، ولا إنساناً، ويعود الشاعر

---

(١) انظر: فضائل القدس/ ١٢٥، الكامل ١٠/٢٧٣ ـ ٢٧٨، المختصر ٢/٢٠٩، النجوم الزاهرة ٥/١٩٩، الحركة الصليبية ١/١٠٢ ـ ١١٢، ٤٢٩، ٥٣٢ ـ ٥٣٤، ٥٥٤، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٢/٢٢، ٧٠، الحروب الصليبية (في تراث الإسلام) ـ باركر/ ٨٢.

(٢) انظر: ذيل تاريخ دمشق/ ٩٨، ٩٩، ١١٢، ١١٤، الكامل ٩/٥٩١، ١٠/٢٥، اتعاظ الحنفا ١/١٧٥، النجوم الزاهرة ٥/١٢٥، ١٢٨، ١٣٠، الحركة الصليبية ١/١٠٢، ١١٣، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ١/١١٦، ١١٧، ٢/٢٢، ٢٨، ٣٣، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ٢/٢٠٥، الحروب الصليبية (في تراث الإسلام) /٧٨.

(٣) انظر: ذيل تاريخ دمشق/ ١٣٥، الكامل ١٠/٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، المختصر ٢/٢١١، تتمة المختصر ٢/٢٠، النجوم الزاهرة ٥/١٥٩، زبدة الحلب ٢/١٢٤، ١٢٥، الحرب الصليبية الأولى/ ٣٨، ١٧٤، أعمال الفرنجة/ ١١٦، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ١/٣٧٦، ٣٩٤، الحركة الصليبية ١/١١٣، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٤.

ليقرر أن البكاء سلاح غير مجد، ولا بد من السير في طريق القوة لإقرار الحق، يقول[1]:

مَزَجْنا دماءً بالدموع السَّواجِم ... فلم يبق منا عُرضة للمراحم
وشَرُّ سلاح المرء دمعٌ يُفيضه ... إذا الحرب شُبَّت نارُها بالصوارم

ويصور ما لحق بالمسلمين في الشام، من قتل، وذل، وهتك أعراض، واستباحة للحمى والنفوس، كما يبدو في قوله مخاطباً المسلمين في العراق، وموازناً بين الحالة السيئة التي كان المسلمون يعانون منها في الشام، وحالة الدعة التي كان المسلمون في العراق يحيونها، وفي ذلك نقد للمسلمين الذين كانوا لا يحسون بما ينزل بإخوانهم من المحن، ويحيون حياتهم العادية، وكأن شيئاً لم يحدث، فلم يحركوا ساكنا، وهم بذلك يخالفون داعي الجهاد، بل يخالفون أوامر الله ورسوله[2]:

وإخوانكم في الشام يُضحي مقيلُهم ... ظهور المذاكي أو بطونَ القَشاعم
تسومهمُ الرومُ الهوانَ وأنتمُ ... تَجرُّون ذيلَ الخفض فعلَ المُسالم
وكم من دماء قد أُبيحت ومن دُمىً
تُواري حياءً حُسْنَها بالمعاصم
بحيث السيوفُ البيضُ مُحْمرةُ الظُّبا ... وسمرُ العَوالي دامياتُ اللهاذم

ويلجأ الشاعر إلى التعريض والتقريع الصريحين فيقول مستنكراً[3]:

أتهويمةٌ في ظل أمنٍ وغبطة ... وعيشٍ كنُوار الخميلة ناعم
وكيف تنامُ العينُ ملء جفونها ... على هفواتٍ أيقظتْ كل نائم

---

(١) ديوان الأبيوردي ٢/١٥٦، الكامل ١٠/٢٨٤، ٢٨٥، نهاية الأرب ٥/٢٢٦، المختصر ٢/٢١١، تتمة المختصر ٢/٢٠، ملخص تاريخ الإسلام/ ٦/١٧٥، البداية والنهاية ١٢/١٥٦، النجوم الزاهرة ٥/١٥٠، عقد الجمان للعيني ٢٢/٩، تاريخ الخلفاء/ ٣٩٤.

(٢) ديوان الأبيوردي ٢/١٥٦، ١٥٧، فضائل القدس لابن الجوزي/ ١٢٦، المنتظم ٩/١٠٨، ١٢٧، الكامل ١٠/٢٨٥، نهاية الأرب ٥/٢٢٦، المختصر ٢/٢١١، تتمة المختصر ٢/٢٠، ملخص تاريخ الإسلام ٦/١٧٥، النجوم الزاهرة ٥/١٥١، البداية والنهاية ١٢/١٥٦، عقد الجمان للعيني ٢٢/٩، ١٠.

(٣) ديوان الأبيوردي ٢/١٥٦، الكامل ١٠/٢٨٥، نهاية الأرب ٥/٢٢٦، المختصر ٢/٢١١، تتمة المختصر =

ويدعو المسلمين للحفاظ على الدين والعرض، وإن لم يفعلوا، فإنه يحاول استثارتهم عن طريق الطمع في الغنائم، وفي هذا كثير من التقريع والتعريض، وقد حُقّ له أن يُعرِّض بمن يتخلف عن أداء واجب الجهاد في ساحة الوغى، يقول(١):

أرى أُمتي لا يُشرعون إلى العدى ... رماحهمُ والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النارَ خوفاً من الردى ... ولا يحسبون العارَ ضربةَ لازم
أتَرْضى صناديدُ الأعاريب بالأذى ... ويُغضي على ذُلٍ كماة الأعاجم
فَليتهمُ إذ لم يذودوا حميةً ... عن الدين شَنُّوا غيرةً للمحارم
وإنْ زهدوا في الأجر إذ حَمُسَ الوغى ... فَهلاّ أتَوْه رغبةً في المغانم

ويختتم الشاعر قصيدته ـ مرثيته ـ هذه، بالدعوة إلى غارة عربية تخلص المسلمين من الاحتلال، ولكنه يبدو يائساً من تلبية استنجاده واستغاثته، يقول(٢):

دعونا كمُ والحربُ تدعو ملحةً ... إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقبُ فينا غارةً عربيةً ... تطيلُ عليها الروم عضَّ الأباهم

ومن الواضح أن هذا اللون من الشعر، يمكن أن يعد أدباً باكياً، كما بدا في مستهل القصيدة، كما يمكن أن يعد أدباً مقاوماً، ملتزماً، حاثاً على التعبئة النفسية والعسكرية، وتحرير الأرض بالقوة. وهو أدب سياسي اجتماعي، يصور بعض جوانب الأحداث السياسية، وهو صدى لها، وفيه تقريع للحكام الذين تخاذلوا عن رعاية أمتهم أمام خطر الأعداء الغزاة. كما يصور بعض جوانب الحياة الاجتماعية التي كان بعض المسلمين يحياها، وخاصة أولئك الذين

= ٢٠/٢، ملخص تاريخ الإسلام ١٧٥/٦، البداية والنهاية ١٥٦/١٢، النجوم الزاهرة ١٥١/٥، عقد الجمان للعيني ٩/٢٢، ١٠.

(١) ديوان الأبيوردي ١٥٧/٢، فضائل القدس/ ١٢٧. المنتظم ١٠٨/٩، الكامل ٢٨٥/١٠، نهاية الأرب ٢٢٦/٥، البداية والنهاية ١٥٦/١٢ ـ ١٥٧، ملخص تاريخ الإسلام ١٧٥/٦، تاريخ الخلفاء/ ٣٩٤، النجوم الزاهرة ١٥١/٥، المختصر ٢١١/٢، تتمة المختصر ٢٠/٢، عقد الجمان للعيني ٩/٢٢، ١٠.

(٢) ديوان الأبيوردي ١٥٧/٢، الكامل ٢٨٦/١٠، نهاية الأرب ٢٢٧/٥، عقد الجمان للعيني ١٠/٢٢.

يظنون أنفسهم بعيدين عن الخطر المحدق بالأمة.

ومن الواضح أن الشاعر قد عمل على استثارة المسلمين دينياً، وذلك أمر طبيعي، فقد كانت الحروب الصليبية حروباً دينية في بعض جوانبها، ومن هنا كان الأثر الديني جلياً فيها.

وتعد هذه القصيدة من الأدب الممثل للأمة الإسلامية، المعبر عن أحاسيسها ومشاعرها، بكل صدق وواقعية. وقد استطاع الشاعر أن ينقل إحساساتها وأحزانها، وقلقها على مصير دينها ووطنها. ولكن التوفيق لم يحالف الشاعر، عندما عَدّ ما حل بالمسلمين هفوات، فهل يعد احتلال البلاد هفوات حقاً؟(١)

وقد استطاع شاعر آخر، لم يذكر اسمه، أن يرثي بيت المقدس بأبيات مؤثرة، حاول فيها استثارة المسلمين، فصور ما حل بهم، وبدينهم، وقرآنهم، ومساجدهم ويستنكر تخاذل المسلمين، واستكانتهم، ويعرِّض بهم، ويدعوهم إلى الجهاد(٢):

أحَلَّ الكفرُ بالإسلام ضَيْماً ... يطولُ عليه للدين النحيبُ
فحقٌّ ضائعٌ، وحِمىً مباحٌ ... وسيفٌ قاطعٌ ودمٌ صبيبُ
وكَمْ من مسلمٍ أمسى سليباً ... ومسلمةٍ لها حَرَمٌ سليبُ
أمور لو تأمَّلَهن طفلٌ ... لطَفَّلَ في عوارضه المشيبُ
فقل لذوي البصائر حيث كانوا ... أجيبوا الله ويحكمُ أجيبوا

ومما تجدر الإشارة إليه أن الشاعرين لم يبرزا مكانة بيت المقدس الدينية، قبلة المسلمين الأولى، وموطن الإسراء والمعراج، وغير ذلك من معالم قدسيتها، مما يتوقع أن يثير الصدى في النفوس.

ولا نجد لدى الشاعرين وصفاً لمعركة القدس، فلم يكن غرض أي منهما،

---

(١) انظر: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية/ ٤٢٥، نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية/ ٢٤ - ٢٧.

(٢) النجوم الزاهرة ٥/١٥١، ١٥٢.

سوى تصوير الفاجعة، وإثارة النفوس علها تستجيب لداعي الجهاد.

★★★

يذكر ابن الأثير أن ما حَلّ بالقدس وبأهلها، أدى إلى حرب بين العساكر المصرية والفرنج، في رمضان من السنة ذاتها، فقد «جمع الأفضل، أمير الجيوش، العساكر، وحشد، وسار إلى عسقلان، وأرسل إلى الفرنج ينكر عليهم ما فعلوا، ويتهددهم»، ولكن الحرب انتهت بهزيمة الأفضل، وعودته إلى مصر، ثم نازل الفرنج عسقلان، وضايقوها»[1]. ويتابع ابنُ تغري بردي ابنَ الأثير، ويضيف أنه لما بلغ الأفضل «أن الفرنج ضايقوا بيت المقدس، خرج في عشرين ألفاً من عساكر مصر، وجَدّ في السير، فوصل إلى القدس يوم ثاني فتحه، فقصده الفرنج، وقاتلوه، فلم يثبت لهم، ودخل عسقلان»[2]. ولكن ابن تغري بردي يذكر ثانية أنه «لم ينهض الأفضل بإخراج «العساكر»، ويتساءل عن السبب في عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال[3]. وهكذا يتبين أن الأفضل لم يقم بما كان واجباً عليه أن يقوم به من جهاد ضد العدو الصليبي قبل احتلال بيت المقدس. وذكر أنه خرج من مصر لانجاد (افتخار الدولة) الوالي في القدس، ولكن دون جدوى، وبعد فوات الآوان[4]، ويذكر عدد من المؤرخين المسلمين والمؤرخين الفرنج أن الأفضل بن بدر الجمالي أرسل بعثة إلى الفرنج، وكانوا يحاصرون أنطاكية، وعرض عليهم أن يأخذوا شمال بلاد الشام، ويأخذ هو جنوبه[5]. ولكن «جب» دحض هذا الافتراض، كما يصفه،

(١) الكامل ١٠/٢٨٦، وانظر: تاريخ مصر لابن ميسر/ ٤٦٣، ذيل تاريخ دمشق/ ١٣٧، النجوم الزاهرة ٥/١٥٠.

(٢) النجوم الزاهرة ٥/١٤٩، ١٧٨.

(٣) نفسه ٥/١٤٧ وانظر: ١٤٨.

(٤) انظر: ذيل تاريخ دمشق/ ١٣٦، ١٧٣، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية/ ١٣، ١٤، الحياة السياسية في بلاد الشام/ ١٢٩.

(٥) انظر: ذيل تاريخ دمشق/ ١٣٥ ـ ١٣٦، الكامل ١٠/٢٧٣، ٢٧٨، تاريخ الخلفاء/ ٣٩٣، ٣٩٤، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ١/٣٢٥، ٣٢٦، ٣٨٥، الحركة الصليبية ١/٢٩، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، أعمال الفرنجة/٥٩، ٦٣، الجبهة الإسلامية/ ١٤٧، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية/ ١١٠، =

ويحاول دحضه بالحقيقة «القائلة إن مبعوثي الفرنجة الذين ذهبوا في تلك السنة قد ألقي بهم في السجن، ويرى أن الاحتمال الأكثر ترجيحاً يتمثل في أن الأفضل «رأى في إقامتهم بشمالي سوريا فعلاً موازياً ونافعاً للوقوف بوجه أطماع السلاجقة كما يقول». كما يرى أن «القصد من هجوم الملك الأفضل المضاد، في الدرجة الأولى، كان للدفاع عن المدن الساحلية، وكان عليه الحفاظ على عسقلان لأهميتها الاستراتيجية والتجارية»[1].

ولقد تحدثت هنا عن موقف الأفضل حيال هذا، لأن صدى هذه الأحداث قد انعكس في الشعر العربي آنذاك، ولكن انعكاسها وصداها كان سلبياً، ويتمثل ذلك في أن الشاعر أبا الصلت أمية بن عبدالعزيز الداني الأندلسي، وقف مدافعاً عن مواقف الأفضل بن بدر الجمالي، ومشيداً به، ومحرضاً إياه ضد جنده.

لقد ذُكر أن سبب عودة العساكر التي كان الأفضل يقودها، يعود إلى ما قيل عن ثورة بعض العساكر، وتآمرهم للقضاء على الأفضل. يذكر ابن أبي أصيبعة أنه «كان قد اتفق ن قوماً من الأجناد وغيرهم، أرادوا الفتك به، فوقع على خبرهم، فقبض عليهم، وقتلهم»[2].

ويقف الشاعر أبوالصلت أمية إلى جانب الأفضل، ويمدحه، ويصوره حاكماً مثالياً، حامياً للدين، وقائداً للجيوش الإسلامية للحفاظ على المسلمين ودينهم وبلادهم، يقول[3]:

هي العزائم من أنصارها القُدرُ ... وهي الكتائبُ من أشياعها الظَفَرُ
جَرَّدتَ للدّين والأسيافُ مغمدةٌ ... سيفاً تُفَلُّ به الأحداث والغيرُ

وهذه مبالغة غير مقبولة، مغايرة للحقيقة والواقع، فقد تُركت مدينة بيت

= ١١١، الحرب الصليبية الأولى/ ١٢٧ ـ ١٢٨، سياسة الفاطميين الخارجية/ ١٥٧.

(١) انظر. صلاح الدين ـ جب/ ٣٢، ٣٦.

(٢) عيون الأنباء/ ٥٠٦

(٣) ديوان أبي الصلت أمية/ ٨٩، خريدة القصر ـ قسم شعراء المغرب ١/ ٢٦٥.

المقدس طعماً ونهباً لسيوف الغزاة، فأين كان الأفضل، وبيت المقدس تابعة له، بل أين كان ملوك المسلمين جميعـاً؟ لقـد كانـوا سادرين في تخـاذلهم وهوانهم، وتنازعهم، وحرصهم على كرسي الحكم دون غيره.

ويسترسل أبوالصلت في تصوير ممدوحه بصورة الحاكم المثالية، مخالفاً الواقع والحقيقة، جاعلاً وظيفة الشعر أن يخدم ممدوحه، وليس هذا فحسب، فإنه يحاول تبرير الهزيمة التي لحقت بالأفضل وعساكره في عسقلان، بعد أن ترك البـاب مفتـوحـاً على مصـراعيه، ليدخـل منه الغزاة المحتلون إلى بيت المقدس، ويحاول الشاعر أن يبرىء ممدوحه من كل تبعات الهزيمة، ويحمل الجند كل تبعاتها، ويتهمهم بأنهم أرادوا القضاء على الأفضل، ويتحدث عن مؤامرة مزعومة، ويحرض على الفتك بهم، والانتقام منهم، يقول[1]

ورامَ كَيْدَكَ أقـوامٌ ومـا عَلمـوا ... أن الـمُـنـى خَطَراتٌ بعضُهـا خَطَرُ
أمـرٌ نَوَوْهُ ولـو هَمُّـوا به وقَـفـوا ... كوقـفـة السعـير لا وردٌ ولا صَدَرُ
فاضـرب بسيفـك من ناواك مُنتقماً ... إن الـسيوف لأهـل البغي تُدَّخَـرُ
فليس يصبحُ شمـلُ المُلْكَ منتظماً ... إلا بحـيث ترى الهـامـات تَنْتثِـرُ

لقـد كان الأجـدر بهـذا الشـاعـر أن يجعـل شعره شعراً معبراً عن أمته، ومأساتها، واحتلال أرضها. ومحاولة استئصالها.

★★★

ومما يُدهش له أننا لا نجد شعراً قيل حول بيت المقدس، بعد احتلالها في سنة ٤٩٢ هـ، ولفترة تقارب ربع قرن من الزمان، وهو أمر غريب حقاً، فمدينة بيت المقدس، ذات المكانة الدينية في نفوس المسلمين، لم تجد من يصور مأساتها، ويدعو إلى تحريرها، وهذا أمر يدعو إلى التساؤل: هل قيل شعر في هذا المجال، ولكنه ضاع ولم يصل إلينا؟ وهل كان لاستشهاد الكثير من الأدباء والشعراء والعلماء، من أهل بيت المقدس، على إثر الاحتلال الصليبي، أثر في ذلك؟ وهل كان لهذه المرحلة التي هزم المسلمون فيها أثر في ذلك أيضاً؟ لعل

(١) ديوان أبي الصلت أمية/ ٩٠، ٩١.

شعراً قيل، ولكنه ضاع. ومن المرجح أن استشهاد الكثير من الشعراء كان له أثر في هذا المجال. يذكر رنسيمان أن المدينة المقدسة أمست «تشكو فراغاً ضخماً، ونقصاً كبيراً في السكان، بعد أن فقدت معظم أبنائها»، وأن المذبحة التي جرت فيها «أدت إلى خلو المدينة من سكانها المسلمين»[1]. يضاف إلى هذا ما قيل عن الشعر العربي من أنه شعر انتصارات لا شعر هزائم. ولعل الشعراء لم يقولوا إلا القليل من الشعر، لأن الهزائم غلبت على الانتصارات في هذه المرحلة، ففي أوائل سنة ٤٩٢ هـ، وبعد احتلال معرة النعمان، قدمت رسل أمير شيزر، ابن منقذ، إلى الصليبيين، وعرضوا عليهم الموادعة والمسالمة، وتزويدهم بالأدلاء إلى بيت المقدس، وإمدادهم بالمؤن. وقدم رسل أمير حماة إلى «ريموند»، وبذلوا الهدايا. وتوالى حكام المسلمين في إعلان استسلامهم وتخاذلهم. فقد أرسل الأمير جناح الدولة، صاحب حمص، إليهم، يطلب المسالمة، وأرسل إليهم الهدايا. وفعل مثل ذلك فخر الملوك بن عمار، أمير طرابلس، وسالمهم، وقدم إليهم الهدايا والأموال. وعرض صاحب بيروت على الصليبيين إمدادهم بالتموين، وتقديم مبلغ من المال. وأرسل دقاق، أمير دمشق، يعرض على بلدوين خمسين ألف قطعة ذهبية فدية للأسرى، ودفع أهل أرسوف وعسقلان الجزية[2].

وفي سنة ٤٩٤ هـ، تسلم الفرنج سروج، وقتلوا أهلها، وفي رجب من هذه السنة، «فتحوا قيسارية بالسيف، وقتلوا أهلها، ونهبوا ما فيها». وفي سنة ٤٩٥ هـ، هزم المسلمون في انطرطوس. وفي سنة ٤٩٧ هـ ملك الافرنج عكا بالسيف قهراً وفي سنة ٤٩٨ هـ، هزم الافرنج العسكر المصري، وقتلوا والي عسقلان، وفي سنة ٥٠٠ هـ، استسلم والي صيدا، وأرسل مالاً إلى بلدوين

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ١/٤٠٥، ٢/١٦، الحركة الصليبية ١/٣٢٢.

(٢) انظر: الاعتبار/ ٦٥، ٨١، ذيل تاريخ دمشق/ ١٣٨ ـ ١٣٩، الكامل ١٠/٢٧٨، ٣٤٣، ٣٤٤، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ١/٣٧٦ ـ ٣٧٩، ٢/١١٩، ١٢٠، أعمال الفرنجة/ ١٠٧ ـ ١١٣، الحركة الصليبية ١/٢٢٠، ٢٢٣، ٢٥١ ـ ٢٥٦، ٢٦٨، ٤٣٢، الحرب الصليبية الأولى/ ١٦٤، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية/ ١١٩، ١٥١، الحياة السياسية في بلاد الشام/ ١٢٦ ـ ١٢٧.

الأول طالباً المسالمة. وفي سنة ٥٠٢ هـ، تحالف رضوان بن تتش، صاحب حلب، مع «تنكرد» صاحب أنطاكية. وفي سنة ٥٠٣ هـ، ترددت مكاتبات ومراسلات بين ظهير الدين أتابك والافرنج»، واستقر الأمر على أن يكون للافرنج الثلث من استغلال البقاع، ويُسلم إليهم عدد من الحصون. وفيها قرر «تنكرد» عشرة آلاف دينار على شيزر. وفي سنة ٥٠٤ هـ، استقرت الحال بين والي عسقلان «شمس الخلافة» و«بغدوين» القائد الصليبي «على مال يحمله إليه»، ويكف الأذية عن عسقلان. وفيها صالحهم أمير حلب، رضوان بن تتش، وصاحب شيزر، ابن منقذ، وصاحب صور، وصاحب حماة على أن يدفعوا لهم الأموال(١).

وفي سنة ٥٠٥ هـ، حضر إلى بغداد «جماعة من الصوفية، والتجار، والفقهاء، إلى جامع السلطان ببغداد، فاستغاثوا، وانزلوا الخطيب عن المنبر، وصاحوا، وبكوا لما لحق الإسلام من الافرنج». وبلغ الحد ببعض المسلمين الذين توجهوا إلى بغداد أن يخاطبوا الخليفة قائلين: «أما تتقي الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام، حتى أرسل إليك في جهادهم»؟ وكان امبراطور الروم قد أرسل إلى الخليفة والسلطان محرضاً ضد الصليبيين، وذلك لأنهم لم يسلموا له المناطق التي احتلوها. ولكن الخليفة والسلطان لم يفعلا شيئاً(٢).

وفي السنين التاليات، استمر قادة المسلمين في غفلتهم، وموادعتهم الفرنج، وكان الكثير من حكامهم مسالمين أو مستسلمين(٣).

---

(١) انظر: ذيل تاريخ دمشق/ ١٣٧، ١٣٨، ١٦٧، ١٧١، الكامل ١٠/٤، ٣٢٥، ٣٧٢، ٤٦٤، ٤٨٠ - ٤٨٣، النجوم الزاهرة ٥/١٤١، ١٤٤، ١٦٧، ١٧٢، ١٧٨، ١٨٨، ٢٠١، زبدة الحلب ٢/١٥٧ - ١٥٨، الحركة الصليبية ١/٢٨٤، ٢٨٥، ٣٥٣، تاريخ الحروب الصليبية - رنسيمان ١/٤٢٠، ٤٣٤ - ٤٣٦، ٢/١٢٠ - ١٢١، ١٤١ - ١٤٣، ١٥٦، ١٥٧.

(٢) انظر: ذيل تاريخ دمشق/ ١٧٣، الكامل ١٠/٤٨٢ - ٤٨٣، زبدة الحلب ٢/١٥٧ - ١٥٨، النجوم الزاهرة ٥/٢٠٥، الحركة الصليبية ١/٣٠٦ - ٣٠٧.

(٣) انظر: الاعتبار/ ١٤٤، ذيل تاريخ دمشق/ ١٨٦، ١٩٩، ٢٠٩، ٢١١ ٢٢٤، النجوم الزاهرة ٥/٢٠٩، زبدة الحلب ٢/٢٢٣ - ٢٢٥، البداية والنهاية ١٢/١٧٦، الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية/ ٤٩٤=

ويتضح من هذا كله، كيف أن المسلمين كانوا قد منوا بالهزائم في المرحلة الأولى من فترة الحروب الصليبية. وهي الفترة التي ابتدأت بالنسبة للمسلمين. ولم يستطع الشعر أن يصور مرحلة الهزيمة هذه، أو أنه ابتعد عن تصويرها، كما تقدم.

= ـ ٤٩٥، الحركة الصليبية ١/٣١٣، ٥١٧، ٥١٠، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٢/١٦١، ٢٧١، ٢٨٦، ٢٨٧.

صدى الدعوة إلى تحرير بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية

إذا كانت مرحلة الهـزيمـة لم تبد جلية في الشعر العربي، وكان صداها باهتاً، فإن مرحلة الدعوة إلى الجهاد، والوحدة الإسلامية والتحرير، تبدو جلية كل الجلاء في الشعر العربي آنذاك.

إن المسلمين قد تخلصـوا من الهزيمة والشعور بها، وبدأوا يحسون بما ينبغي عليهم القيام به. لقد لقيت الدعوة إلى تحرير بيت المقدس من الاحتلال الصليبي صدى كبيراً في الشعـر العـربي، في عصر الحروب الصليبية، بعد مرحلة الهـزيمـة. وقـد انعكس ذلك جلياً في شعر الانتصارات التي احرزها المسلمون منذ نحو سنة ٥٣٩ هـ، وذلك بعد بروز شخصيات قيادية إسلامية قادت الجهاد المقدس ضد العدو الصليبي، من أمثال عماد الدين زنكي، ونور الدين زنكي، وغيرهما.

ظهـرت الدعوة إلى تحرير بيت المقدس، من خلال المديح، والفخر، والـرثـاء، والتعزية، والحنين، وغير ذلك من فنون الشعر. وبدا هذا جلياً من خلال ما قيل في أبطال المسلمين، مدحاً، ورثاءً، من أمثال عماد الدين زنكي، ونور الدين زنكي، وأسد الدين شيركوه، وصلاح الدين الأيوبي، وغيرهم.

وشارك في تلك الدعوة، بل في تلك التعبئة النفسية للمسلمين، عدد كبير من الشعـراء من أمثال ابن منير الطرابلسي، وابن القيسراني، وطلائع بن رُزّيك، وأسامة بن منقذ، والعماد الاصفهاني، وغيرهم من الشعراء. ومن الطبيعي أن تستمر الدعوة إلى الجهاد إلى أن يتم تحرير بيت المقدس، وكل ما احتل من بلاد المسلمين.

وأما بالنسبة إلى بيت المقدس، فقد بدأ الشعراء بالدعوة إلى تحريره منذ احتلاله في سنة ٤٩٢ هـ، ولكن هذه الدعوة برزت بصورة اكثر جلاء في الشعر بعد الثلث الأول من القرن السادس الهجري، بعد أن تمكن المسلمون من إحراز الانتصـارات الحـاسمـة في معـركـة الـرُّهـا، ومعـركة إنّب. وغيرهما من المعـــارك. وقـــد تغنى الشعـراء بتلك الانتصـارات، وأشـادوا بأبـطالهم

ومن ذلك ما قاله الشاعران ابن منير الطرابلسي، وابن القيسراني.

ومن خلال تلك القصائد، دعا الشاعران إلى تحرير بيت المقدس، فقد دعا ابن منير الطرابلسي إلى تحريره، في قصيدة قالها مادحاً عماد الدين زنكي، ومهنئاً بفتح الرها، ومطلعها[1]:

بعمـادِ الـدّين أضحتْ عُروةُ الـدّيـ ـن منصـوبـاً بهـا الفتـحُ المبينْ

وبعـد الشـاعـر فتح الرها مقدمة لفتح بيت المقدس، وهو يصور بذلك أمنيتـه، بل أمـاني المسلمين، كمـا يصـور أحـاسيسـه ومشاعره، وأحاسيس المسلمين ومشاعرهم، تجاه بيت المقدس، يقول[2]:

وَغـداً يُلقى على الـقُـدس لهـا كلكـلٌ يَدْرسـهـا دَرْسَ الـدَّرينْ

ويدعو ابن القيسراني إلى تحرير بيت المقدس أيضاً، في قصيدة قالها مهنئاً بفتح الرّها ومطلعها[3]:

هو الـسـيفُ لا يغـنـيك إلّا جلادُه وهـل طَوَّق الأمـلاكَ إلّا نجـادُهُ

ويتـوجـه فيها إلى تهديد العدو الصليبي، ويطلب منهم أن يسارعوا إلى الخروج من بلاد المسلمين، ويتركوا ممالك انشأوها، وعلى رأسها مملكة بيت المقدس كما كانوا يسمونها. ويؤكد الشاعر ارتباط المسلمين ببلادهم، وحقهم فيها، بأقل الألفاظ، وأبسطها، كما يبدو في قوله[4]:

وقُـلْ لملوك الكُفـر تُسلمُ بَعْـدَهـا ممـالـكَـهـا إنَّ الـبـلادَ بلادُهُ

كَذَا عن طريق الصبح فَلْيَنْته الدُّجى فيا ظالـمـا غال الـظلامَ امتـدادُهُ

ويعـد ابن القيسراني فتح الرها مقدمة لفتح بيت المقدس، وما أجمل تصويره فتح الرها بالبحر، والبحر لا ينفك عن ساحله، وكذلك كان فتح الرها مرتبطاً بفتح بيت المقدس، فهما مثل البحر وساحله، ويرى الشاعر أن الخلاص

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ١١٠، أو ١/ ٣٩، شعر ابن منير/ ١٩٠، ديوان ابن منير/ ١٩٩

(٢) كتاب الروضتين ١/ ٤٠، شعر ابن منير/ ١٩٣، ديوان ابن منير/ ٢١٠

(٣) كتاب الروضتين ج ١ ق ١/ ٩٧ أو ١/ ٣٧، أعلام النبلاء ١٠/ ٢٠٣.

(٤) كتاب الروضتين ج ١ ق ١/ ٩٨.

من الصليبيين أمرات لا محالة، كما يبدو في قصيدة له يمدح فيها جمال الدين، وزير الموصل ويهنئه بفتح مدينة الرها، ومطلعها[1]:

أمـا آن أنْ يُزهَـق البـاطـلُ وأنْ يُنـجـزَ الـعِـدَة الـمـاطِـلُ

ومنها:

فإنْ يكُ فتْـحُ الـرُّهـا لُجـةً فسـاحلُهـا القُـدسُ والسـاحـلُ
فهـلْ علمـتْ علمَ تلك الـديا ر أنَّ الـمـقـيمَ بهـا راحـلُ
أرى القسَّ يأمـلُ فوْت الـرمـاح ولا بُدّ أنْ يُضـرب الـسـابِـلُ

ويصور ابن منير الطرابلسي عيسى عليه السلام. قـد جاء مستنجداً بنور الـدين زنكي وسيفـه. ليخلصه، ويخلص بيت المقـدس ممـا فعله المحتل الصليبي، وهي أفعال لا يرضى عنها عيسى عليه السلام. ويقرن الشاعر حديثه هذا بالدعاء لنور الدين زنكي بالبقاء، ليكون حامياً للدين، كما يبدو في قوله، من قصيدة قالها في نور الدين، في رمضان سنة ٥٤٣ هـ، مشيداً، ومهنئاً[2]:

أبـقـاك للدُّنـيا ولـلدّين مَنْ خَلاّكَ في ليلهـمـا نيِّرا
حتـى نَرى عيسى من القُـدْس قَدْ نجـا إلـى سيفـك مُسْتـنصِـراً

ويدعو ابن القيسراني نورالدين زنكي إلى تحرير القدس والأقصى اللذين ينتظران تخليصهما من نير الاحتلال، ويصور ذلك بأنه أكثر ما يتمناه نورالدين نفسه، وما يتمناه ابن القيسراني، وما يتمناه المسلمون جميعاً، كما يبدو في قول الشاعر من قصيدة قالها متغنياً بانتصار نورالدين زنكي في معركة إنّب في سنة ٥٤٤ هـ، ومهنئاً بالنصر، ومطلعها[3]:

هذي العـزائمُ لا ما تَدّعي الكُتُبُ هذي المكـارمُ لا ما قالت الكتبُ

وفيها يقول:

---

(١) خريدة القصر ـ قسم شعراء الشام ١/١٠٨، ١١٠، كتاب الروضتين ج ١ ق ١/١٢٦، مختصر تاريخ الإسلام/ ٩٦.

(٢) كتاب الروضتين ج ١ ق ١/١٤٨، ١٤٩، شعراء منبر/ ٩٦، ديوان ابن منير/ ٢٠٧.

(٣) كتاب الروضتين ج ١ ق ١/١٥٢، ١٥٤، مفرج الكروب ١/١٢١، الكامل ١١/١٤٥، زبدة الحلب ٢/٣٠٠، كنز الدرر (الدرة المضية) ٦/٥٥٤، اعلام النبلاء ١٣/٢، ١٥.

فانهضْ إلى المسجد الأقصى بذي لجبٍ
يوليك أقصى المُنى فالقدس مُرتقبُ
وائذن لموجك في تطهيرِ ساحلِهِ فإنما أنت بحرٌ لُجُّهُ لجبُ

ولا يكاد ابن القيسراني يترك حدثاً يقع، إلا ويتخذ منه مجالاً للدعوة إلى تحرير بيت المقدس. يذكر ابن القلانسي، وأبوشامة المقدسي، أنه في المحرم من سنة ٥٤٥ هـ قد «تقرر الصلح بين نورالدين وأرباب دمشق، والسبب في ذلك أن نورالدين أشفق من سفك دماء المسلمين، إن أقام على حربها. واتفق أنهم بذلوا له الطاعة، وإقامة الخطبة على منبر دمشق بعد الخليفة والسلطان»[1].

وفرح المسلمون لاتفاق قادتهم في الشام، ورأى ابن القيسراني في ذلك الاتفاق عاملاً مهماً لتحرير بيت المقدس من الاحتلال الصليبي، والقضاء على أولئك الصليبيين الأوروبيين، والخلاص من ضلالهم، معلناً بزوغ فجر النصر والتحرير، كما يبدو في قوله مخاطباً نورالدين، حاثاً إياه على مواصلة الجهاد، من قصيدة مطلعها[2]:

لك الله إنْ حاربتَ فالنصرُ والفتحُ
وإن شئتَ صلحاً عُدَّ من عَزْمك الصلحُ

ومنها:

إذا ما دمشق مَلَّكتْك عنانها تَيقَّنَ مَنْ في إيليا أنَّه الذبحُ
متى التف نَقْعُ الجحفلين على الهدى
فلا مَهْمهٌ يحوي الضلالَ ولا سفحُ
إذا سارَ نورُالدين في الجيش غازياً فقولا لليل الإفك قد طلعَ الصبحُ

ويقرر ابن القيسراني أن الحق للقوة، وأن بيت المقدس والأقصى لن يحررا إلا بالسيف، ولا يتم التحرير إلا بالتضحية بالنفوس، وتقديم الدماء الطاهرة

(١) ذيل تاريخ دمشق/ ٣٠٩، ٣١٠، كتاب الروضتين ١/٧٠.

(٢) كتاب الروضتين ج ١ ق ١/١٧٩، ١٨٠ أو ١/٧٠.

الزكية قرباناً على مذبح الحرية، وكم يبدو قول الشاعر معبراً عندما يصور السيوف والرماح وقد قامت بواجبها على خير وجه، لتخليص الأرض، والإنسان، كما يبدو في قوله مادحاً نورالدين زنكي، بعد مقتل (البرنس)، وأسر (جوسلين) من عتاة قادة الصليبيين، وفتح حصون عديدة[1]:

كأنـي بهـذا الـعـزم لا فُلَّ حَدُّه ... وأقصاه بالأقصى وقد قُضي الأمرُ
وقد أصبح البيتُ المقدسُ طاهراً ... وليس سوى جاري الدماء لهُ طُهْرُ
وقد أدت البيضُ الحدادُ فروضَها ... فلا عهدةٌ في عُنق سيفٍ ولا نَذْرُ
وإن تَتَيَمَّمْ ساحلَ البحر مالكاً ... فلا عجبٌ أنْ يملكَ الساحلَ البحرُ
وصَلَّتْ بمعراج النبي صوارمٌ ... مساجدُها شَفْعٌ وساجدُها وَتَرُ

ويشارك العماد الأصفهاني في الدعوة إلى تحرير بيت المقدس، كما يبدو في أشعاره التي مدح بها أبطال المسلمين، من أمثال نورالدين زنكي، وأسد الدين شيركوه، وصلاح الدين الأيوبي، وتقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وغيرهم من أبطال المسلمين، ففي سنة ٥٦٣ هـ، كان نورالدين قد أخضع الأمير غازي بن حسان المنبجي، صاحب منبج، حيث ساءت أفعاله، وعصى على نور الدين، فأخذها منه، وتوجه لتهذيب أحوالها، فقال العماد الأصفهاني قصيدة يمدحه فيها، ويهنئه بالنصر في منبج، ويصور هذا الفتح مفتاحاً لكل فتح آت. ويحثه على الاستمرار في إحراز الفتوحات عامة، وفتح بيت المقدس، وتحريره خاصة، كما يبدو في قوله[2]:

بُشْرَى الممالكِ فتحُ قلعةِ منبجٍ ... فَلْيهنِ هذا النصر كلُّ مُتَوِّجِ
أعطيت هذا الفتح مفتاحاً به ... في المُلْك يفتحُ كلَّ باب مُرْتَجِ
وافى يبشِّرُ بالفتوح وراءه ... فانهضْ إليها بالجيوش وعَرِّجِ
أبشر فبيتُ القدسِ يتلو مَنبجاً ... ولمنبجٍ لسواهُ كالأنموذجِ

(١) خريدة القصر ـ قسم شعراء الشام ١/١٨٥، كتاب الروضتين ج ١ ق ١/١٨٥، ١٨٧ أو ١/٧٢، ٧٣، معجم الأدباء ١٩/٦٩، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية/ ١٠٣، اعلام النبلاء ٢/٢٣.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني/ ١٠٢ ـ ١٠٣، كتاب الروضتين ج ١ ق ٢/٣٨٠، ٣٨١ أو ١/١٥١، اعلام النبلاء ٢/٤٨، ٤٩.

ما أعْجزتَك الشُّهبْ في أبراجِها طلباً فكيف خوارجٌ في أبْرُجِ

إلى أن يقول:

فانهضْ إلى البيت المقدس غازياً وعلى طرابلس ونابلس عُجِ

ويشارك الحافظ أبوالقاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر في الحديث عن الاستيلاء على مصر، فأنشأ قصيدة في السنة ذاتها يمدح فيها نورالدين، ويهنئه، ويحثه على تحرير بيت المقدس، وتطهير الأقصى من الشرك وآثاره، فقد أصبحت حلب، ودمشق، والموصل، ومصر، صفاً واحداً، كما يبدو في قوله[1]:

وإنْ بذلتَ لفتح القُدس محتسباً للأجر جُوزيت خيراً غير محتسبِ

والأجرُ في ذاك عند الله مرتقبٌ فيما يثيبُ عليه خيرُ مرتقبِ

والذكرُ بالخيرِ بين الناسِ تكْسِبُهُ خيرٌ من الفضة البيضاءِ والذهبِ

إلى أن يقول:

وطهِّر المسجدَ الأقصى وحَوْزتَهُ من النجاساتِ والإشراك والصُّلُبِ

عساك تظفرُ في الدُّنْيا بحسن ثنا وفي القيامةِ تلقى حُسْن منقلبِ

★★★

وظهرت الدعوة إلى تحرير بيت المقدس من خلال رثاء الأهل والأوطان، ففي سنتي ٥٥١ هـ و٥٥٢ هـ وقعت زلازل عظيمة بالشام، وحلب، وشيزر، وغالب بلاد الشام، «وأهلكت كثيراً من أهلها، وهلك بها من هلك من الخلق، وكان نحواً من عشرة آلاف»[2].

أنشأ أسامة بن منقذ أشعاراً «يندب وطنه وأهله الهالكين في الزلازل بحصن شيزر»[3]. وهو ما لا مجال لتفصيل القول فيه هنا. وكتب إليه صديقه طلائع بن

---

(١) خريدة القصر ـ قسم شعراء الشام ١/٢٧٧، كتاب الروضتين ج ١ ق ٢/٤٠٥ أو ١/١٦٠.

(٢) انظر: ذيل تاريخ دمشق/ ٢٣٤ ـ ٢٣٦، كتاب الروضتين ١/١٠٣ ـ ١٠٥، الكامل١١/٢١٨، النجوم الزاهرة ٥/٣٢٥.

(٣) ديوان أسامة بن منقذ/ ٢٨٧، ٣٠٤ ـ ٣٠٩.

رُزيك قصيدة يتحدث فيها عن تلك الزلازل وآثارها المدمرة، ويعزيه عن أهله[1].

ومع ايمان الشاعر طلائع بن رزيك بالقضاء والقدر، وبأن ما حَلّ ببلاد الشام هو قضاء وقدر من الله، فإنه يحاول أن يعلل ما حدث في بيت المقدس وغيره من ديار الإسلام، ويبين أن أسباب الكارثة التي نزلت بالمسلمين وبلادهم، تعود إلى أن مدينة بيت المقدس كانت محتلة من قبل الصليبيين، على الرغم من مكانتها الدينية، وقدسيتها، فهي القبلة الأولى، وموطن الإسراء والمعراج، وهي المدينة المقدسة التي كان المسلمون يقصدونها، من كل حدب وصوب في العالم الإسلامي. للتعبد، والمجاورة، والعلم، يقول[2]:

إنّ ظنّي والظّنُّ مثل سهام الـ ـرمي منها المُخطي ومنها المصيبُ
إنَّ هذا لأن غدتْ ساحةُ القُدْ س وما للإسلام فيها نصيبُ
منزلُ الوحي قبل بعثِ رسول اللـ ـه فهو المحجوج والمحجوبُ

ويتساءل الشاعر عن سبب الكوارث التي حلت بالشام، كما يبدو في قوله[3]:

أبِذنْبٍ أصابها قدَرُ اللـ ـهِ فللأرض كالأنامِ ذنوبُ

وفي حديث طلائع عن مكانة بيت المقدس وقدسيتها، حث واضح على الجهاد والتحرير. ويصور طلائع مدينة بيت المقدس في ظل الاحتلال، ويعرض بالمحتلين وأفعالهم، يقول[4]:

لو رآه المسيحُ لم يَرض فعلاً ذَكروا أنَّهُ لهُ منسُوبُ

ويدعو إلى الجهاد، وتوحيد الصفوف بين مصر والشام، للعمل على تخليص بيت المقدس، مما يعاني منه من كروب الاحتلال، يقول[5]:

ولعمري إنَّ المناصحَ للدّ ين على الله أجرُه مَحسُوبُ

(١ و٢ و٣) ديوان طلائع/ ٦١، ٦٣، ديوان أسامة/ ٧، ١٥٣، ١٦٥، كتاب الروضتين ١٠٦/١، عيون التواريخ ٤٩٥/١٢.

(٤) ديوان طلائع/ ٦٣، ديوان أسامة/ ١٦٥، كتاب الروضتين ١٠٦/١.

(٥) ديوان طلائع/ ٦٤، ٦٥، ديوان أسامة/ ١٦٥، ١٦٦.

وجهادُ العدوِ بالفعل والقو ل على كلِّ مُسلمٍ مكتوبُ
أو تراها مثل العروسِ تراها كلُّه من دمِ العِدا مخضوبُ
لطنين السيوفِ في فَلقِ الصُّب ح على هام أهلها تَطريبُ
ولجمع الحشودِ من كل حِصنٍ سَلَبٌ مُهمَلٌ لهم ونُهوبُ
وبحول الإله ذاك، ومن غا لب ربّي فإنّه مغلوبُ

★★★

وتظهر الدعوة إلى تحرير بيت المقدس، من خلال رثاء الأبطال، ومن ذلك رثاء نورالدين زنكي، كما يبدو في قصيدة للعماد الأصفهاني، يرثي فيها نورالدين، مطلعها[1]:

الدينُ في ظُلَمٍ لغيبة نوره والدهرُ في غُممٍ لفقد أميره

ويتحدث العماد عن فقد حامي الإسلام، وهو الحامي الذي كان يسعى إلى تحرير بيت المقدس، سعياً متواصلاً، وهو الذي صُنع في عهده منبر المسجد الأقصى، لينقل إليه بعد التحرير.

ويشير العماد إلى عزم نورالدين على تحرير بيت المقدس، قبل وفاته، كما يبدو في قوله في قصيدة يرثي فيها نورالدين[2]:

أوَ ما وَعَدْت القُدس أنّك منجزٌ ميعاده في فتحه وظهوره
فمتى تُجيرُ القُدس من دَنس العِدا وتَقدَّس الرحمنُ في تطهيره

وتظهر الدعوة إلى تحرير بيت المقدس في قصيدة للعماد الأصفهاني قالها في سنة ٥٦٤ هـ، معزياً السلطان صلاح الدين الأيوبي، بعمه أسد الدين شيركوه، ومهنئاً إياه، ومطلعها[3]:

أيابوسف الإحسانِ والحُسنِ خير مَنْ
حَوى الفضل والإفضال والنهي والأمْرا

---

(١) خريدة القصر ـ بداية قسم شعراء الشام/ ٧٢، كتاب الروضتين ١/٢٤٤.

(٢) خريدة القصر ـ بداية قسم شعراء الشام/ ٧٢، كتاب الروضتين ١/٢٤٥.

(٣) ديوان العماد الأصفهاني/ ١٥٩، كتاب الروضتين ج ١ ق ٢/٤٥٣.

ويصوره فيها حامياً للدين، ويشيد بأبيه، ويتحدث عن مناقب عمه شيركوه، ويركز على جهاد شيركوه ضد الصليبيين، ويحث صلاح الدين فيها على مواصلة الجهاد، والعزم على تحرير بيت المقدس، كما يبدو في قوله[1]:

وما يرتوي الإسلام حتى تغادروا ... لكم من دماءِ الغادرين بها غَدْرا
فَصبُّوا على الإفرنج سوط عَذابها ... بأن تقسموا ما بينها القتلَ والأسْرا
ولا تُهمِلُوا البيتَ المقدَّس واعزموا ... على فتحه غازينَ وافترِعوا البكرا
تُديمون بالمعروف طَيِّب ذكركم ... وما المُلْك إلا أن تديموا لكم ذكْرا
وإنَّ الذي أثرى من المال مُقْتِّر ... وإن يُفنه في كسبِ محمدةٍ أثرَى

★ ★ ★

ويشارك طلائع بن رزيك في الدعوة إلى تحرير القدس، في مجال الفخر والحماسة، كما يبدو في افتخاره بجهاده، وجيوشه، ووقائعه التي انتصر فيها على العدو الصليبي، ويصور جبال القدس قد أصبحت أرضاً قفراً مستوية، بعد أن هاجمتها جيادهم، ويصور القضاء على العدو تصويراً ساخراً، فقد عمَّ أرضها خصب نجم عن ارتواء ثراها بدمائهم، وقضى على صوت النواقيس فيها، كما يبدو في قوله[2].

جَعَلْنا جبالَ القدسِ فيها وقد جَرت ... عليها عتاقُ الخيل كالنفنف السَّهْب
فقد أصبحتْ أوعارُها وحُزونُها ... سهولاً تُوطَّا للفوارس والرَّكْب
ولما غدَتْ لا ماءَ في جَنَباتها ... صَبَبنا عليها وابلاً من دمٍ سَكْب
وجادتْ بها سُحْبُ الدروع من العِدا ... نجيعاً فأغْنتها الغَداةَ عن السُّحْب
وأجرَتْ بحاراً منه فوقَ جبالها ... ولكن بحارٌ ليس تَعْذبُ للشرْب
فقد عَمَّها خِصبٌ به من رؤوسهم
بها ولَكَمْ خِصبٍ أضرَّ من الجَدْب

---

(١) ديوان العماد الأصفهاني/ ١٦١، كتاب الروضتين ج ١ ق ٢/ ٤٥٤.

(٢) ديوان طلائع (ط النجف)/ ٥٨، ٥٩، (ط مصر)/ ٤٧ ـ ٤٨، خريدة القصر ـ قسم شعراء مصر ١/ ١٧٨، ١٧٩.

وقـد روعـتـهـا خيلُنـا قبـلَ هذه مراراً وكـانت قبـلُ آمنـة السِّرْب
وأخْفى صهيلُ الخيلِ أصوات أهلها فعـافتْ نواقيسَ الفرنج عن الضَّرْب

★★★

وتـظهـر الـدعوة إلى الجهاد وتحرير بلاد المسلمين، من خلال الاشعار التحـريضية ضد من عاضد الفرنج، فقد ذكر أبوشامة المقدسي أن نورالدين حاصر «دمشق في سنة ٥٤٦ هـ، وذلك لمعاضدة أهلها الفرنج، واستنصارهم بهم». وأضاف ابن القلانسي أن الفرنج قد احتشدوا لإنجاد أهل دمشق، «وقد ضاقت صدور أهل الدين والصلاح، وزاد إنكارهم لمثل هذه الاحوال المنكرة، والأسباب المستبشعة»[1].

وليس هذا فحسب، فقـد ذكـر أن حاكم دمشق (مجير الـدين) ومؤيده، خرجـوا في خواصهمـا وجماعة وافرة من الرعية، واجتمعا بملكهم وخواصه، «وكان الافرنج حين اجتمعوا مع العسكر الدمشقي قد قصدوا بُصرى لمنازلتها، ومضايقتها، ومحاربتها، فلم يتهيأ ذلك لهم. . . ، وراسلوا مجير الدين ومؤيده يلتمسون باقي المقاطعة المبذولة لهم على ترحيل نورالدين عن دمشق، وقالوا: لولا نحن ندفعه ما رحل عنكم»[2]. فياللعجب فإننا نرى حاكماً مسلماً يتصل بأعـداء المسلمين، ويحـالفهم، ويقرر دفع مال لهم ذليلاً صاغراً، علماً بأن نورالدين لم يكن يبغي إلا صلاح المسلمين، وجهاد المشركين، وخلاص من في أيديهم من الأساري. وطلب من حاكم دمشق التعاضد على الجهاد[3]. ودعا هذا المـوقف الشعراء إلى تحريض نورالدين ضد من خانوا دينهم، وأمتهم، وأرضهم، ومن ذلك ما فعله ابن منير الطرابلسي، فلما كان نورالدين محاصراً دمشق، كتب إليه قصيدة يحـرضـه فيها على من تعاونوا مع العدو الصليبي، وكتبهـا إليه من حماة، وقد تخلف لمرض عرض له[4]. ويصف الشاعر المتعاونين

(١) انظر: خريدة القصر ـ قسم شعراء مصر (حاشية) ١/١٧٣، ذيل تاريخ دمشق/ ٣١٣، كتاب الروضتين ١/٧٧.
(٢) ذيل تاريخ دمشق/ ٣١٤.
(٣) نفسه/ ٣١٣، ٣١٤.
(٤) كتاب الروضتين ١/٧٧.

مع العدو بالنفاق، والكفر، والضلال، «والخداع الخيبري»، ويدعوه إلى القضاء عليهم، ويبين أنه لن تحرر بلاد المسلمين وعلى رأسها بيت المقدس، إلا بعد القضاء على أولئك المتخاذلين، ثم يحث الشاعر على تحرير الأقصى، وتطهيره من كل رجس ودنس، ويصور بلد خليل الرحمن، وغزة هاشم مستجيرة بنورالدين، لتخليصها من الاحتلال وآثاره، يقول[1]:

آثارُهُمْ نَجسٌ أذال المسجدَ الـ ... أقصى فَصُنْ ما دَنَّسوه وطهِّرِ
جارَ الخليل ومن بغزَّة هاشم ... بلهامك المتَدَمْشق المُتمصِّرِ

ويصب ابن منير جام غضبه على الحاكم الدمشقي مجيرالدين، ويصفه بأنه مبيد الدين، فقد حارب حزب الله، وتنصر، وقد يتهود، ويصور أنه ما لحق باليهود في بيت المقدس في عهد بختنصر، أقل مما تجرعه مجيرالدين ومؤيده، كما يبدو في قوله[2]:

وأُقسمُ ما ذاقَ اليهودُ بابليا ... وموضعها من بُختنصر أسودُ
كبعض الذي جرّعته فَسَرطْتهُ ... وأيدٌ فيه من عماك المؤيدُ
ولايتُه عزل إليك موجه ... وتصحيفهُ قتلٌ عليك مؤبدُ

ويبين الشاعر في القصيدة ذاتها أنه لا بد من تخليص دمشق من أمثال أولئك الحكام، ويصور دمشق وبيت المقدس، تصويراً مؤثراً، ويتمنى أن يرى أعلام النصر والتحرير مرفرفة فوق الأقصى والصخرة، يقول[3]:

دمشقَ دمشقَ إنّما القُدس سرحةٌ ... ومَركزُها صَرحٌ عليها مُمردُ
حموها لكي يُحموا، وقد بلغ المدى ... بهم أجلٌ حتْمٌ وعُمرٌ مُحدَّدُ

ويدعو ابن منير نورالدين زنكي إلى شن غارة شعواء تصلي الكافرين سعيرا، كما يقول هو نفسه، ويدعو إلى تدميرهم والخلاص منهم، في صور

---

(١) كتاب الروضتين ج ١ ق ١/١٩٦، أو ١/٧٨، شعر ابن منير/ ١٠٧، ديوان ابن منير/ ٢٢٩، ٢٣٠.

(٢) كتاب الروضتين ج ١ ق ١/١٩٨، شعر ابن منير/ ٦٣، ديوان ابن منير/ ٢٣١.

(٣) كتاب الروضتين ١/٧٩، شعر ابن منير/ ٦٥، ديوان ابن منير/ ٢٣٣.

وبيت المقدس، كما يبدو في قوله من قصيدة قالها في المحرم من سنة ٥٤٧ هـ، عندما افتتح نورالدين حصن أنطرسوس، وخلصه من العدو الصليبي، يمدحه فيها، ويهنئه بالفتح، ويدعوه إلى متابعة الجهاد[١]:

باكِرْ بركْزِ قَناً تُنسِّفُ أسَّها ... والمخيلُ صورٌ كي تُزيرك صُورا
وتُريك لامعة التريكِ بساحةِ الـ ... أقصى مُطهرة لها تطهيراً
أوَلسْتَ من قومٍ إذا هزّوا القنا ... فتلوا معاصمهم لها تَسْويرا

★★★

يدعو الشاعران طلائع بن رزيك وأسامه بن منقذ إلى الجهاد وتحرير بلاد المسلمين التي احتلها الصليبيون، وعلى رأسها بيت المقدس، فقد كتب طلائع بن رزيك قصيدة إلى أسامة، وفيها يعد الجهاد أهم مهمة يجب أن يقوموا بها، يقول[٢]:

وأهَمُّ الأمورِ أمرُ جهادِ الـ ... ـكفرِ فاسمع فعندنا التحقيقُ

ويتحدث طلائع عن جهاده ضد الصليبيين، ويبين أنه كان ينتظر شفاء نورالدين زنكي من مرضه، ولن يعوقه أمر عن الجهاد بعد ذلك، يقول[٣]:

أنتَ في حسم داءِ طاغيةِ الـ ... كفار ذاك المرجو والمرموقُ
فاغتنمْ بالجهادِ أجْرَك، كي تلـ ... ـقى رفيقاً له، ونعم الرفيقُ

ويجيب أسامة بن منقذ بقصيدة على الوزن نفسه، والقافية نفسها، ويشيد فيها، بطلائع وأفعاله ضد الصليبيين، فهو أمير الجيوش، وهو ركن وثيق للإسلام، ثم يصور صدى دعوة الجهاد هذه لدى نورالدين، يقول[٤]:

أسمعَتْ دعوةُ الجهاد، فلبَّا ... ها مليكٌ بالمكرمات خَليقُ
مالَهُ عن جهادِه الكُفْرَ والعد ... لِ وفعلِ الخيراتِ شغلٌ يَعوقُ

---

(١) كتاب الروضتين ١/٨٧، شعر ابن منير/ ٩٨، ديوان ابن منير/ ٢٤٦.

(٢) ديوان طلائع/ ١٠٣، كتاب الروضتين ١/١١٦.

(٣) ديوان طلائع/ ١٠٣، كتاب الروضتين ١/١١٦.

(٤) ديوان أسامة بن منقذ/ ٨٨، ١٨٩.

ويرسل طلائع بن رزيك قصيدة إلى أسامة بن منقذ، ويحثه على تحرير بيت المقدس، خاصة، كما يبدو في قوله[1]:

فَأْبلغن قولنا إلى الملك العاد ل فهو المرجُوُّ والمأمولُ
قُلْ له كم تماطلُ الدَّينَ في الكفـ ـار فاحذر أن يغصبَ الممطولُ
سر إلى القُدْس واحتسبْ ذاك في اللـ ـه فبالسير منك يُشفى الغليلُ
وإذا ما أبطا مسيرُك فاللـ ـه إذن حَسْبُنا ونعمَ الوكيلُ

فكتب إليه أسامة قصيدة على الوزن نفسه، والقافية نفسها، ويشيد بطلائع في جهاده، وعدله، ويطيل في الحديث عن جهاده ضد الصليبيين[2]. ويرد طلائع بقصيدة داعياً إلى غزو جيوش الكفر في عقر دارها، كما يقول الشاعر نفسه، ويحث نورالدين على الجهاد، ويصور الحالة في الشام، وقد «خيم جيش الكفر فيها»، ويقول مخاطباً أسامة[3]:

فقلولوا لنورالدّين لا فُلَّ حدُّه ولا حكمتْ فيه الليالي الغواشمُ
تجهَّزْ إلى أرض العَدُوِ ولا تَهُنْ وتظهر فُتوراً أنْ مضت منك حارمُ

إلى أن يقول:

فقمْ واشكر الله الكريم بنهضه إليهم، فشكرُ الله للخلق لازمُ

ويرد أسامة بقصيدة يشيد فيها بطلائع، ويتحدث عن حمايته الإسلام والمسلمين[4].

ويتحدث طلائع في قصيدة أخرى أرسلها إلى أسامة، عن الصراع مع الفرنج، ويحث على الجهاد، فيقول:[5]:

فقولوا لنورالدّين ليس لجائف الـ ـجراحات إلا الكيُّ في الطب والبَطُّ

(١) ديوان طلائع/ ١٢٩، ١٣٠، كتاب الروضتين ١/١١٩.
(٢) انظر: ديوان أسامة/ ١٤٠ ـ ١٤١، ١٩٠، ١٩٢.
(٣) انظر: ديوان طلائع/ ١٤١.
(٤) انظر: ديوان أسامة/ ٢٢٤ ـ ٢٢٦.
(٥) ديوان طلائع بن رزيك/ ٨٧، كتاب الروضتين ١/١٢٠.

وحَسْمُ أصولِ الداءِ أولى لعاقلٍ
لبيبٍ إذا استولى على المُدْنفُ الخلطُ

ويصور أسامة جيوش المسلمين وجهادها بقيادة نورالدين زنكي، ويبين أن غاية الأماني تتمثل في تحرير بيت المقدس، يقول[1]:

ونرتجع القدسَ المطهَّرَ منهمُ ويُتلى بإذن الله في الصخرة الذكرُ

ويتبين من هذه المراسلات الشعرية أن الجهاد كان أهم واجب ينبغي القيام به، وأنه لن يقر للمسلمين قرار إلا بتحرير بيت المقدس خاصة.

★★★

ويدعو العماد الأصفهاني صلاح الدين إلى تحرير الساحل، وتطهير بيت المقدس من رجس الاحتلال، كما يبدو في قوله من قصيدة كتبها إليه عندما كاتب (مؤتمن الخلافة) الفرنج[2]:

يا مُخجلَ البحر بالأيادي قد آنَ أنْ تُفتحَ السواحلْ
فقدِّس القُدس من خباثٍ أرجاس كفر غُتمٍ أراذلْ

ويشيد عمارة اليمني بجهاد صلاح الدين ضد الفرنج، ويحرضه على القضاء على «مُرّي»، ملكهم في بيت المقدس، في قصيدة أنشأها في سنة ٥٦٤ هـ، يقول[3]:

أخَذْتم على الافرنج كل ثنيَّةٍ
وقلتمْ لأيدي الخيل مُرّي على «مُرْي»

ويحثه على تحرير بيت المقدس، كما يبدو في قوله من قصيدة أخرى[4]:

قُلْ لابن أيوب وكمْ ناصحٍ أنفعُ ممن هو شاكي السلاحْ

---

(١) ديوان أسامة بن منقذ/ ٢٠٤.

(٢) انظر: ديوان العماد الأصفهاني/ ٣٢٤، الروضتين ١/١٧٨، الكامل ١١/٣٤٥ـ٣٤٧، مفرج الكروب ١/١٧٧، شفاء القلوب/ ٧١، ٧٢، تاريخ ابن الفرات م ٤ ج ١/٧٢، خطط المقريزي ٢/١٩.

(٣) كتاب الروضتين ١/٦٤.

حاربْ على مثـل نجـوم السَّمـاً فمُـلْكُ مصـرَ ما عليه اصـطلاحْ
فالـقـدسُ قد آذن إغـلاقـه على يدي يوسـف بالإنـفـتـاحْ

ويصور عمارة بيت المقدس مشتاقاً إلى صلاح الدين، ويحثه على تحريره يقول[1]:

أضَفْتَ إلى أجـرِ الجهـادِ زيارة الـ ـخـليل فأبْـشـرْ أنـت غاز موفـقُ
وهـيَّجـتَ للبيت المقـدَّس لوعـةً يطولُ بهـا منـه إلـيك التَـشَـوُّقُ
تَنْـشَـقُ من مَلْقـاك أعـظم نُفحـةٍ تطيبُ على قلب العدى حين تنشقُ
وغَـزْوُكَ هذا سُلَّمٌ نحـو فتـحـهِ قريبـاً، وإلاّ رائـد ومـطرّقُ
هو البيتُ، إنْ تفتحـهُ والله فاعـلٌ فمـا بعـده بابٌ من الشـام مُغلقُ

ويشارك الملوك الايوبيون أنفسهم في الدعوة إلى تحرير بيت المقدس، ومن ذلك ما قاله الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب، فقد قال قصيدة يمدح فيها صلاح الدين، ويحثه على الجهاد، ويصور مدينة بيت المقدس تبحث عن رجل كفء، ويصورها فتاة، عروساً بكراً، قد رفضت الكثيرين الذين تقدموا لها، ولكنها رفضتهم لأنهم ليسوا أكفاء، كما يبدو في قول تقي الدين[2]:

جاءتْكَ أرضُ القُدسِ تخطبُ ناكحاً يا كُفْـأهـا ما العُـذْرُ عن عَذْرائهـا
زُفَّـتْ إليك عروسَ خدْرٍ تُجتـلى ما بين أعْـبُـدِهـا وبـين إمـائهـا
إيهٍ صلاحَ الـدين حُذْهـا غادةً بِكْـراً ملوكُ الأرض من رُقَـبـائهـا
كم خاطـب لجـمـالـهـا قد رَدَّه
عن نَيْلهـا أنْ ليس من أكـفـائهـا

ومن الواضح أن تقي الدين ينهج في هذه الأبيات، وفي هذه الصور، وفي هذه الروح الشعرية، نهج أبي تمام في قصيدته في عمورية «السيف أصدق أنباء من الكتب...»، ويتجلى ذلك في أبيات ابي تمام التي صور فيها عمورية

(١) كتاب الروضتين ١/١٩٣.

(٢) خريدة القصر - بداية قسم شعراء الشام/ ٨١ - ٨٥.

فتاة، وعروساً بكراً فاتنة[1].

★★★

ويصور العماد الأصفهاني بيت المقدس مظلمة، وهي ترزح في ظل الاحتلال الصليبي، وانها لمنتظرة صباح الحرية، ويتحقق بذلك تطهيره، وتطهير أقصاه المبارك، كما يتحقق مراد نورالدين ومبتغاه، يقول: «وقسطنطينية والقدس يجريان إلى أمد الفتوح في مضمار المنافسة، وكلاهما في وحشة ليل الظلام المدلهم على انتظار صباح المؤانسة، والله تعالى بكرمه يُدْني قطاف الفتحين لأهل الإسلام، ويوفق الخادم نورالدين لحيازة مراضي الإمام». ويختتم الكتاب بقوله: «ونسأل الله التوفيق لاستدناء قواصي المنى، وإقصاء عبدة الصليب الأنجاس من المسجد الأقصى، وان يجعل فتح بيت المقدس مُفتتح مُراده، ومُقترح زناده، ومقترحه في جهاده، وأن يملكه الساحل بجميع بلاده»[2].

★★★

وظهرت الدعوة إلى تحرير بيت المقدس من خلال شعر الحنين، ومن ذلك ما قاله العماد الأصفهاني، فقد أنشأ قصيدة في التشوق إلى دمشق، ومطلعها[3]:

أجيرانَ جَيْرونَ مالي مُجيرُ سِوى عطفكُمْ فاعدلوا أو فجوروا

ويمدح فيها صلاح الدين[4]، ويحثه على الجهاد، والاعتماد على الله في تحرير بيت المقس، كما يبدو في قوله[5]:

نُهوضاً إلى القُدس تَشفي الغليـ ـل بفتْح الفُتوح وماذا عسيرُ

(١) انظر: ديوان أبي تمام ١/٤٧، ٤٨.

(٢) انظر: الروضتين ١/٢١٥، مفرج الكروب ١/٢٣٥.

(٣) خريدة القصر ـ قسم شعراء الشام/ ١٩، كتاب الروضتين ١/٢٤٥، معجم الأدباء ١٩/١٥.

(٤) انظر: خريدة القصر ـ بداية قسم شعراء الشام/ ٢٧ ـ ٢٩.

(٥) كتاب الروضتين ١/٢٤٧.

سَلِ الله تسهيل صَعْب الخطو ب فهو على كلّ شيء قديرُ

★★★

واستمرت الدعوة إلى تحرير بيت المقدس تشيع في الشعر، ففي سنة ٥٧٠ هـ، قال العماد الأصفهاني شعراً يمدح فيه صلاح الدين، ويهنئه بفتح بعلبك[١]، ويصور هذا الفتح، وغيره من الفتوح الأخرى محتاجة إلى فتح عظيم يتوجها، وهو فتح بيت المقدس، كما يبدو في قوله[٢]:

فَتملَّ فَتحك واقصد الفتحَ الذي بحصوله لفتوحك الإتمامُ
دُمْ للعُلى حتى يدومَ نظامُها واسلمْ يَعزُّ بنصرك الإسلامُ

ويستمر صلاح الدين يعد العدة للتحرير، ويستمر العماد الأصفهاني، وغيره من الشعراء، في الدعوة إلى تلك الأهداف السامية، وأهمها تحرير بيت المقدس، ففي سنة ٥٧٢ هـ أنشأ العماد الأصفهاني قصيدة يمدح فيها صلاح الدين، ويدعوه إلى فتح بيت المقدس، وتطهيره، وتخليصه من الشرك وأهله، كما يبدو في قوله[٣]:

فَسِرْ وافتح القُدس واسْفكْ به دماءً متى تُجرها يَنظفِ
وأهد إلى الإسبتارِ البَتَّار وَهُدَّ السُّقوفَ على الأسقفِ
وخَلِّص مِن الكُفرِ تلك البلاد يُخلِّصْك ربُّك في الموقف

★★★

ويصعب الأمر على صلاح الدين، وبيت المقدس ما زال محتلاً بأيدي الصليبيين، ويتألم لانصراف المسلمين عن أداء فرض الجهاد. ويبدو هذا المعنى جلياً في رسالة للقاضي الفاضل أنشأها في سنة ٥٧٤ هـ، فيعجب من حماسة العدو، وتخاذل المسلمين، يقول: «وغير خافٍ عن مولانا همة الفرنج

(١) انظر: الروضتين ١/٢٤٧، الكامل ١١/٤٢٠، تتمة المختصر ٢/١٢٩.

(٢) كتاب الروضتين ١/٢٤٧.

(٣) انظر: الروضتين ١/٢٦٩، خريدة القصر ـ قسم شعراء مصر ١/١٥، مفرج الكروب ٢/٥٦ ـ ٥٧.

بالقدس براً وبحراً، ومركباً وظهراً، وسلماً وحرباً، وبُعداً وقرباً، وتوافيهم على حماسة، وهو أنف في وجه الإسلام، ومسارعتهم إلى نصرة أهليه بالأرواح والأموال على مر الأيام، ومعاذ الله أن يستبعدوا في الضلال، ونصرف نحن عن الحق، ويضيق في التوسعة على أهله سعة المجال»[1].

★★★

وعاود الحلبيون الاتصال بالفرنج، وأغروهم بصلاح الدين، وراسلوا الحشاشين، وهم في ذلك يتخذون من الفرنج «بطانة دون المؤمنين». ويصور العماد الاصفهاني كيف أصبح البيت المقدس «محلاً للأرجاس، ومضت عليه دهور وملوك لم يحصلوا من رجاء تطهيره إلا على الياس» كما يقول العماد نفسه[2].

ويشارك ابن الساعاتي في الدعوة إلى تحرير القدس، في قصيدة أنشأها في ربيع الأول سنة ٥٧٥ هـ يهنىء السلطان صلاح الدين بفتح حصن بيت الاحزان وتخريبه، وكان بيد الافرنج، ومطلعها[3]:

بجدّك أعطافُ القنا تتعطَّفُ وطرفُ الأعادي دون مجدك يطرِفُ

ويصور صلاحَ الدين «شهاب هدى في ظلمة الشك»، وسيفاً مرهفاً مسلولاً في سبيل الله، ويصور انتصار المسلمين بقيادة صلاح الدين في معركة حصن بيت الأحزان، وقد تركوا الحصن قاعاً صفصفا»، ويربط بين ذلك، وبين تحرير فلسطين، ويؤكد ان صلاح الدين آت محرراً، وما على المحتل الصليبي إلا الرحيل، يقول[4]:

---

(١) كتاب الروضتين ٢/٤.

(٢) نفسه ٢/٢٣.

(٣) انظر: ديوان ابن الساعاتي ٢/٤٠٩، سنا البرق الشامي/ ١٧١، الروضتين ٢/١١، البداية والنهاية ١٢/٣٠٣.

(٤) ديوان ابن الساعاتي ٢/٤٠٩، سنا البرق الشامي/ ١٧١، كتاب الروضتين ٢/١٢، خزانة الأدب/ ٣٦٩، البداية والنهاية ١٢/٣٠٣.

أيسْكنُ أوطانَ النبيين عُصْبةٌ تمينُ لدى أيمانها وهي تحلفُ
نصحتكمُ والنصحُ في الدين واجبٌ ذروا بيت يعقوب فقد جاءَ يوسفُ

ونتساءل هنا: أأرادت مصر أن تعود أيام يوسف عليه السلام، وهي أيام قحط حقاً، أم أن العماد وقع في ذلك لحديثه عن اليوسفين، يوسف عليه السلام، ويوسف بن أيوب[1]؟

وفي المحرم من سنة ٥٧٩ هـ، أنشأ ابن الساعاتي قصيدة يمدح فيها السلطان صلاح الدين، ويحث فيها على تحرير بيت المقدس، مما حل به، وما حلَّ بقبلته الأولى، فيقول[2]:

فليعلم القُدْسُ أنّ الفتح منتظرٌ حلولهُ وعلى الآفاقِ فَليطُل
وافاك يوسفُ يا بيتَ الخليلِ فلا تيأس فإنَّك فيه صادقُ الأملِ
وما السواحلُ إلا كالفرات إذا وافى فإنْ لم تُحط عِلْماً به فَسَلِ
فلا تُضيعه فما الدينُ الحنيفُ على خلقٍ سواك من الدنيا بمتكلِ

وهكذا كانت الدعوة إلى تحرير بيت المقدس ذات صدى كبير في شعرنا العربي آنذاك، ولم يترك شعراؤنا مناسبة إلا ودعوا من خلالها إلى تحرير بيت المقدس.

صدى الدعوة إلى وحدة المسلمين في أدب الحروب الصليبية:

لقد ابتدأ العالم الإسلامي بالتجزؤ، منذ منتصف القرن الثالث الهجري، ثم انتشرت في أصقاعه دول وامارات متعددة ومتنازعة. واستمر هذا الأمر في العالم الإسلامي، في القرون التالية، ويهمنا ان نشير، في هذه الدراسة، إلى استمرار تلك الأوضاع في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، وفي القرن السادس الهجري، وفي النصف الثاني من القرن السابع الهجري. وقد كان العالم الإسلامي آنذاك يسوده تمزق سياسي واجتماعي، واقتصادي، كما

(١) انظر: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية/ ٤٧١.
(٢) ديوان ابن الساعاتي ٢/٣٨٤، شفاء القلوب/ ١٠٣، ١٠٤.

كانت تحكمه قوى متناقضة فيما بينها، مختلفة سياسياً. وعقائدياً، وفكرياً، فكانت هناك الخلافة الفاطمية في مصر بسياستها، ومذهبها وفكرها، وكانت هناك الخلافة العباسية في بغداد بسياستها، ومذهبها، وفكرها، وقد كان ذلك التنازع يؤدي إلى ضعف المسلمين، وطمع أعدائهم فيهم، فأصبح العالم الإسلامي، في مصر، والشام، والجزيرة، مطمعاً للغزاة من الصليبيين، لتحقيق مكاسب سياسية، واقتصادية، ودينية.

وكانت بلاد الشام مسرحاً لتلك الخلافات السياسية والمذهبية، بين الخلافة العباسية، والخلافة الفاطمية[1].

كان الأمراء في الشام متفرقين، وهم يُغزون في عقر دارهم، وكان كل منهم «يعتمد على جهوده الخاصة. وبعضهم كان تابعاً لبغداد، والآخر للقاهرة. ولم يهتم أحد منهم بمصير الآخر». وهكذا كان تفرق المسلمين، واشتغال رؤسائهم بالمنازعات الداخلية، وقلة إيمانهم بحرمة الوطن الإسلامي، وقدسية أراضيه، قد أدى كل ذلك إلى ما لحق بالعالم الإسلامي من هزيمة أمام الغزو الصليبي[2]. وبهذا كانت مصيبة العالم الإسلامي متمثلة في أمرائه، و«مطامعهم الخاصة، دون أن تظهر من بينهم الشخصية القوية التي تستطيع جمعهم، وتسير بهم إلى هدف مشترك»[3]

لقد حققت الحملة الصليبية الأولى أهدافها لأن المسلمين كانوا متفرقين متخاصمين، وفشلت الحملة الصليبية الثانية لأن المسلمين كانوا متحدين بقيادة نورالدين.

ومن الطبيعي ان يكون في الاحتلال الصليبي لبيت المقدس، ولغيره من

---

(١) انظر: صلاح الدين ـ جب/ ٤٥ ـ ٦٠، دراسات في حضارة الإسلام/ ٢٩، تاريخ فلسطين القديم/ ١٦٥، ١٦٦، سياسة صلاح الدين الأيوبي/ ٥٤، ٥٥.

(٢) انظر: تراث الإسلام/ ١٤٠.

(٣) انظر: الحرب الصليبية الأولى/ ١٥٤.

بلاد المسلمين في الشام ومصر، تحد للمسلمين وقادتهم، وهو تحد لم يؤد إلى الاستجابة الفعالة في أوائل عهد الاحتلال الصليبي، ولكنه أدى إلى الاستجابة الفعالة حقاً في العهدين الزنكي والأيوبي، في عهد عماد الدين زنكي، وفي عهد نور الدين زنكي، ثم في عهد صلاح الدين الأيوبي، وقد كان ظهور هؤلاء «طبيعياً بل حتمياً استجابة للتحدي الذي أصاب المشرق الإسلامي، ولتخليص المشرق الإسلامي مما حل به»[1]. لقد قام المسلمون، في هذين العهدين، بثورة على الاحتلال الصليبي، وهي ثورة سياسية، واجتماعية، واقتصادية، وفكرية، وقد شارك المسلمون في هذه الثورة من قبل، فتوجههم من الشام إلى بغداد، مع القاضي الهروي، هو لون من تلك الثورة على الخلافة العباسية في بغداد، وعلى ضعفها، وعدم تحركها للقيام بواجبها، ثم توجههم من حلب إلى بغداد، ثائرين على الخلافة العباسية التي لم تتحرك، وطلبهم التحرك للجهاد، ولكن دون جدوى. وقد بلغ الأمر بالمسلمين في ثورتهم أن يقولوا للسلطان السلجوقي: «أما تتقي الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام»، حتى أرسل إليك في جهادهم»[2]، وكان الامبراطور البيزنطي قد أرسل سفارة إلى الخليفة العباسي، والسلطان السلجوقي، يحرضهم ضد الصليبيين، وقد دعا إلى الايقاع بهم، وترك التراخي في أمرهم، قبل إعضال خطبهم، واستفحال شرهم[3]. وتجدر الإشارة إلى أن الامبراطور البيزنطي قد فعل ذلك لأن الصليبيين لم يسلموه كل الأراضي التي استولوا عليها في آسيا الصغرى، وكانت ضمن امبراطوريته. يذكر ابن الاثير في حوادث سنة ٥٠٤ هـ، أن المسلمين الذين وصلوا إلى بغداد مستنجدين ثائرين، قد «اجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم» من المسلمين في بغداد، وقصدوا جميعاً السلطان، وطلبوا منه إنفاذ العساكر للجهاد، وبلغت ثائرتهم أن يمنعوا الصلاة، ويكسروا المنبر[4].

(١) انظر: سياسة صلاح الدين/ ٥٣، ٥٧.

(٢) انظر: الكامل ١٠/٤٨٣.

(٣) انظر: ذيل تاريخ دمشق/ ١٧٣، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية/ ١٥٢، ١٥٣، تاريخ الحروب الصليبية - رنسيمان ٢/١٩٦، ١٩٧.

(٤) انظر: الكامل ١٠/٤٨٢ - ٤٨٣. =

لقد رأى صلاح الدين أن الإعداد للمعركة، والوحدة، والتحرير، يقتضي العمل لإصلاح شؤون بلاد المسلمين، في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية، والمالية، والاجتماعية، والفكرية، والعمرانية، والعسكرية، وبهذا يقف المسلمون وقادتهم على أرض صلبة في مقاومتهم للعدو، وتخليص بلادهم منه. ورأى صلاح الدين أن ضعف العالم الإسلامي كان سبباً في خلق الدويلات الصليبية واستمرار بقائها، ولذا سعى إلى «إعادة الكيان السياسي الإسلامي إلى سابق عهده»، وإحيائه في ظل دولة إسلامية قوية، على أن يكون الحكم وفق الشريعة، وإعلان الولاء للخلافة العباسية[1].

لحق ببلاد المسلمين الكثير من الخراب والدمار، من جراء الاحتلال الصليبي، وتعطل كثير من معالم الحياة في مختلف مجالاتها، وكان عماد الدين زنكي، ثم ابنه نورالدين زنكي، قد بدء العمل على إصلاح البلاد سياسياً، واقتصادياً، واجتماعياً، وفكرياً، وحربياً، وعمرانياً، وهو ما لا مجال لتفصيل القول فيه في هذه الدراسة.

وتجدر الإشارة إلى أن نورالدين زنكي كان يمثل الروح الجديدة المتوثبة للقتال، وأنه كان قد وضع أساس الوحدة الإسلامية. وفي عهده، تم ضم مصر والشام بقيادة أسد الدين شيركوه. وقد شارك صلاح الدين في صنع تلك الوحدة بين البلدين الإسلاميين[2].

= وانظر مثل ذلك في: الكامل ١١/٥٨ ـ ٥٩، ١٢٧، مفرج الكروب ١/٧٩ ـ ٨١، ١٢٧، ذيل تاريخ دمشق/ ٣٠٩، الروضتين ١/٢٠١ ـ ٢٠٣.

(١) انظر: صلاح الدين ـ جب/١٩١، ١٩٢، ٢٠١، دراسات في حضارة الإسلام/١٣٣.

(٢) انظر: النوادر السلطانية/ ٣٦ ـ ٤٠، مفرج الكروب ١/٥٧٢، التاريخ الباهر/ ٦٩، ١٣٧، ١٣٨، الروضتين ١/١٢٩ ـ ١٣٢، ١٤٢ ـ ١٤٤، ١٥٤، ١٧٣، ٢٣٣، ٢٣٧، ٢٤١، الكامل ١١/٢٩٨ ـ ٣٠١، ٣٢٤ ـ ٣٢٧، ٣٣٥ ـ ٣٤٥، النجوم الزاهرة ٥/٣٣٨، ٣٤٣، ٣٤٧ ـ ٣٥٢، ٣٧٣، ٣٨١، ٣٨٧ ـ ٣٨٩، ٦/٦، شفاء القلوب/ ٢٥ ـ ٣٦، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية/ ٢٤٩، الحرب والسلام/ ١١، ١٣، ١٤، نور الدين والصليبيون/ ٢٢ ـ ٢٥، ٣٥ ـ ٤٢، ٥٧، ٦٩، ٧٢، تاريخ الدولة الفاطمية/ ١٨٣، ١٨٨ ـ ١٩٦، الحركة الصليبية ٢/٦٣٤، ٦٣٦، ٦٣٧، ٦٤٣ ـ ٦٤٧، ٦٥٨ ـ ٦٦٤، ٦٦٦ ـ ٦٧٠، ٦٧٣ ـ =

ويبين العماد الأصفهاني أن فتح مصر سيكون ميسراً لفتح بيت المقدس[1].

إن دخول المسلمين مصر بقيادة أسد الدين شيركوه وصلاح الدين جعل «دولة القدس الصليبية بين شقي الرحى»، وبفضل استيلائهم على مرفأي دمياط والاسكندرية، أخذوا أسطولاً بحرياً»، فقطعوا صلة الصليبيين بأوروبا[2].

وسار صلاح الدين على نهجهم، وسعى لتوحيد بلاد المسلمين في مصر والشام والعراق، للوقوف في وجه العدو الصليبي المحتل، وتحرير بيت المقدس، وغيره من بلاد الإسلام التي احتلها العدو الغازي، ورأى في ذلك السبيل الفعال، ووضعه في المكان الأول في سياسته، وقد قضى في ذلك سنوات طوالاً للوصول إلى الهدف، ولكن عقبات كثيرة وقفت في سبيل هذا الهدف، وتمثلت تلك العقبات في عدد من حكام دمشق، وحكام حلب، وحكام الموصل آنذاك[3]، كما تمثلت في الاسماعيليين الذين حاولوا القضاء على صلاح الدين اكثر من مرة، وذكر أنهم راسلوا الصليبيين[4]. وذكر أن عدداً من امراء دمشق، بعد وفاة نورالدين، صالحوا الفرنج، وهادنوهم على مال، واطلقوا أسراهم.

= ٦٧٩، العرب والروم واللاتين/ ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٧٧، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٢/ ٥٨٥ ـ ٥٩٢، ٦١٤، تراث الإسلام/ ٨٣.

(١) انظر: الروضتين ١/ ١٥٩ ـ ١٦٣.

(٢) انظر: سنا البرق الشامي/ ١٥٦، ٢/ ٧، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٢/ ٦٤٥.

(٣) انظر: الاعتبار/ ١٣٩، ١٩٦، ذيل تاريخ دمشق/ ٢٧٢، ٢٧٣، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٢/ ٣٦٤ ـ ٣٦٧، ٣٩٢، الحركة الصليبية ٢/ ٥٨٥.

(٤) انظر: النوادر السلطانية/ ٥٢، الروضتين ١/ ٢١٠، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٥٨، ٢٦١، ٢٧٥، ٢/ ٢٤، مفرج الكروب ١/ ٢٣٩، ٢٤٠، ٢/ ١١٠، ١١٥، سنا البرق الشامي/ ١٨١، ٢٠٩، رحلة بنيامين التطيلي/ ١٥٣ ـ ١٥٤، الكامل ١١/ ٤١٢، ٤١٩، النجوم الزاهرة ٦/ ٢٧، ٧٦، شفاء القلوب/ ٨٦، ٩٢، شذرات الذهب ٤/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥، صلاح الدين ـ جب/ ١٢٤، ١٢٧، ١٣٥، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٢/ ١٩٣ ـ ١٩٥، شعلة الإسلام/ ٦٨ ـ ٧٢، الحركة الصليبية ٢/ ٧١٧، ٧٢١، ٧٢٢، الحرب والسلام/ ١٥، ١٦، سياسة صلاح الدين/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦.

كتب صلاح الدين، إلى القاضي ابن أبي عصرون مبيناً أن غرضه يتمثل في الجهاد. وتطهير بلاد المسلمين، ويبين أن تلك الهدنة مع الصليبيين «مؤذنة بذل الإسلام»، وطلب من القاضي أن يجرد نفسه ولسانه لإنكار اتصال عدد من حكام المسلمين بالصليبيين ومحالفتهم[1]. يقول صلاح الدين: «إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم، وألف كلمتهم». ورأى صلاح الدين أن «من الحزم جمع المسلمين على سلطان واحد، يقيم الملة، وينصر الشريعة»، وقصد أن يلم «شعث الإسلام وقيام الدين»[2].

وكان صلاح الدين قد استنكر ما فعله أمراء المسلمين من الحلبيين والمواصلة، كما يبدو في كتاب كتبه القاضي الفاضل إلى بغداد، على لسان صلاح الدين، يقول فيه: «والمملوك ـ صلاح الدين ـ بين عدو إسلام يشاركونه في هذا الأسم لفظاً، ولا ينوون لما استحفظوا حفظا، وعدو كفر، فما يجاورهم إلا بلاده، ولا يقارعهم إلا أجناده»، وطلب صلاح الدين من الخليفة أن يأمر ملوك الأطراف جميعاً «أن يكونوا للمملوك على المشركين أعوانا، وأن يتمثل أمر نبينا محمد ﷺ، في أن يكونوا بنياناً فيعضدوه إذا سعى، ويلبوه إذا دعا، ولا يقعدوا عن المعاضدة في فتح بيت المقدس الذي طابت النفوس عن ثاره، وطأطأت الرؤوس تحت عاره»، إلى أن يقول: «فإن قعدت بهم العزائم، وأخذتهم في الله لومة لائم، فلا أقل من ألا يكونوا أعواناً عليه يلفتونه عن قصده، حريصين على اتصال المكروه إليه»[3].

كانت القضية التي يواجهها صلاح الدين سياسية من جانب، وكانت أخلاقية ونفسية من جانب آخر، كما كانت اجتماعية واقتصادية من جانب ثالث، ورأى أن التصدي لها لا يقتصر على المجالين السياسي والعسكري، وعليه أن

(١) انظر: الروضتين ١/٢٣٣، ٢٣٦، ٢٤٠، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٠، مرآة الزمان ٨/٣٢٤، البداية والنهاية ١٢/٢٨٥، ٢٨٩.

(٢) انظر: الروضتين ١/٢٣١ ـ ٢٣٣، مفرج الكروب ٢/٧، ٨، طبقات الشافعية الكبرى ٧/٣٦١ ـ ٣٦٢، وفيات الأعيان ٧/١٦٦، شفاء القلوب/ ٨٥.

(٣) انظر: الروضتين ١/٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢/٣٩، البداية والنهاية ١٢/٣١١.

يُعنى بالمجال الأخلاقي والنفسي إلى جانب المجالين السابقين، والعناية بالمجال الخلقي النفسي، استعان بالعلماء (فقهاء المدارس)، والمتصوفة، وأزال المكوس والمظالم[1].

يذكر ابن شداد ان صلاح الدين رأى واجباً عليه وهو الحفاظ على بلاد الشام، ولن يكون ذلك إلا بالوحدة، بين مصر والشام، وخرج صلاح الدين إلى الشام خوفاً من استغلال الفرنج «اختلاف امراء الشام، وشغل بعضهم ببعض»، فلقد «اختلف الامراء، وحادت الآراء، وظهرت الشرور. . .، وطمعت الاعداء من كل جانب في المسلمين، وكان صلاح الدين يهدف إلى جمع شمل البلاد، والاحسان إلى أهلها، ونصرة الإسلام، ودفع الطغام، وإظهار القرآن، واخفاء سائر الأديان».

وكان قد بلغه أن المواصلة راسلوا الصليبيين كما تقدم، وكانوا قد عقدوا عهداً معه، ولكنهم نكثوا اليمين، فعقد العزم على قصدهم لجمع العساكر الإسلامية على عدو الله. وكتب صلاح الدين إلى الملك الصالح إسماعيل بن نورالدين، وطلب منه الا يستمع إلى من حوله من المفسدين وبين أن قصده يتمثل في جمع الكلمة[2].

★★★

ويتردد صدى العمل لتحقيق وحدة المسسلمين في الأدب العربي، في فترة الحروب الصليبية، وخاصة في رسائل القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وضياء الدين بن الأثير التي أنشأوها حول بيت المقدس.

يصور القاضي الفاضل غاية صلاح الدين في الوحدة جلية كما يبدو في

(١) انظر: صلاح الدين ـ جب/ ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، دراسات في حضارة الإسلام/ ١٣٥، ١٣٦.

(٢) انظر: النوادر السلطانية/ ٥٦، الروضتين ١/٢٣٠، ٢٤٠، ٢٤٧ ـ ٢٥٠، ٢٥٣ ـ ٢٦٢، ٢/٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٩، ٣١، ٤٩، سنا البرق الشامي/ ١٩٥، ١٩٦، مفرج الكروب ٢/٣٧، ٣٨، الكامل ١١/٤١٨ ـ ٤٣١، ٤٣٦، ٤٥٠ ـ ٤٥١، ٤٨٢ ـ ٤٨٨، مضمار الحقائق/ ١٠٨، ١٠٩، البداية والنهاية ١٢/٢٩٢، صبح الأعشى ١٣/٥١، الحركة الصليبية ٢/٧٤٧، سياسة صلاح الدين/ ١٣٤.

قوله، مخاطباً رسول قطب الدين ينال بن حسان المنبجي[1]: «اعلم أنني وصلت إلى الشام لجمع كلمة الإسلام، وتهذيب الأمور، وحياطة الجمهور، وسد الثغور، وتربية ولد نور الين، وكف عادية المعتدين» ولم يكن صلاح الدين يريد «إلا من تكون عليه يد الله، وهي الجماعة». وكان غرضه من ضم الموصل «أن يكون المُوصلَ إلى القدس وسواحله». كما يبين القاضي الفاضل في بعض رسائله[2].

ويصور العماد الأصفهاني عمل صلاح الدين، وأنه لن يترك المسلمين يقصد بعضهم بعضاً، وسيجمع «شملهم على الاتفاق والاتحاد»[3].

لقد هدف صلاح الدين إلى توحيد قوى المسلمين، والجهاد ضد الصليبيين، وعمل في هذين الميدانين بجد وإخلاص، ولم يكن راغباً في محاربة بعض امراء المسلمين، إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك، من أجل إتمام عملية الوحدة الإسلامية. يقول القاضي الفاضل، على لسان صلاح الدين، في كتاب كتبه إلى الخليفة في بغداد، في سنة ٥٨١ هـ، مبرراً قتال المواصلة: «وما كنا بشهادة الله في قتال» المواصلة وغيرهم إلا كمن يقطع «كفه ليسلم سائر جسمه، وكراكب حد السنان، مضطراً في حكمه»[4].

يقول: «ولا استودعت الأرض الكريمة البذر إلا لتؤدي في حقها يوم حصادها، فالله الله أن تختلف القلوب والأيدي، فتبلغ الأعداء مرادها، وتقدم الآراء رشادها، وتنتقل النعم التي تعبت الأيام فيها إلى أن أعطيت قيادها، فكونوا يداً واحدة، وأعضاداً متساعدة، وقلوباً يجمعها ود، وسيوفاً يضمها غمد، ولا

---

(١) أمير من أمراء نور الدين زنكي. وكان صلاح الدين قد حصره في منبج، في سنة ٥٧١ هـ.
(انظر: الروضتين ١/٢٣٧، ٢٣٨، سنا البرق الشامي ١/١٧٩، الكامل ١١/٣٣٨، ٣٤٣، ٤٢٩ - ٤٣٠، التاريخ الباهر/ ٧٤، مفرج الكروب ٢/٢١.

(٢) كتاب الروضتين ١/٢٣٨، وانظر: سنا البرق الشامي ١/١٧٩، شفاء القلوب/ ٨٥، ٨٦.

(٣) البرق الشامي ٣/١٢٩، وانظر: صلاح الدين ـ جب/ ١٩٤، دراسات في حضارة الإسلام/ ١٣٤.

(٤) كتاب الروضتين ١/١٦، وانظر: البداية والنهاية ١٢/٣١٦، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ٢/٢٣٦، القدس الخالدة/ ٢١٩، سياسة صلاح الدين/ ١٣٥، ١٣٦.

تختلفوا فتتكلوا، ولا تنازعوا فتفشلوا، وقوموا على أمشاط الأرجل، ولا تأخذوا الأمر بأطراف الأنمل، فالعداوة محدقة بكم من كل مكان، والكفر مجتمع على الايمان»[1].

ويبين القاضي الفاضل، في رسالة أخرى كتبها، على لسان صلاح الدين إلى الخليفة في بغداد، انهم لا يختارون إلا أن «تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها، لا متحاسدة بعتوها، ولو أن أمور الحرب تصلحها الشركة، لما عز عليه أن يكون كثير المشاركين، ولا ساءه أن تكون الدنيا كثيرة المالكين، وإنما أمور الحرب لا تحتمل في التدبير إلا الوحدة»[2].

كان صلاح الدين قد كتب إلى الخليفة، في غير مرة، وكان يبين له أنه قد نذر نفسه للجهاد المقدس لتخليص الإسلام من الغزاة، واستعادة بيت المقدس، ويؤكد حتمية الوحدة، ويجليها ما جاء في رسالة أخرى كتبها القاضي الفاضل، على لسان صلاح الدين، إلى ديوان الخليفة في بغداد، قال: «وعلمنا أن البيت المقدس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه...، وأنا لا نتمكن بمصر منه...، والمراد الآن هو كل ما يقوي الدولة، ويؤكد الدعوة، ويجمع الأمة، ويحفظ الألفة، ويضمن الرأفة، ويفتح بقية البلاد»[3].

عمد صلاح الدين إلى توحيد المسلمين بالقوة أو بغيرها، وكان الحكام في الموصل واصلوا الفرنج، بل سلموا إليهم ثغوراً من ثغور المسلمين، وتواعدوا معهم « ليطلبوا ولاية الخادم من جانب، ويطلبها الفرنج من جانب...، ولم ينظروا للإسلام في العواقب»، كما جاء في رسالة كتبها القاضي الفاضل، إلى ديوان الخليفة في بغداد. وقد اقتضى عملهم هذا معالجة الأمر بالقوة أو بغيرها، يذكر العماد الأصفهاني، في حوادث سنة ٥٧٨ هـ، أن صلاح الدين كتب إلى الملوك للوفود إليه والاتفاق معاً، والوقوف صفاً واحداً للجهاد في سبيل الله، على

(١) كتاب الروضتين ١/ ٢٣٠.

(٢) نفسه ٢/ ٤٨.

(٣) كتاب الروضتين ١/ ٢٤٣، وانظر: صلاح الدين ـ جب/ ١٢٠، شعلة الإسلام/ ٦٧.

أن يكـونوا «من أجناد السلطان وأتباعه في جهاد الكفار». واستجاب له حكام حصن كيْفا، والرُّها، وحَرَّان، والرَّقة، وغيرها. وحاصر صلاح الدين الموصل، ثم رأى أن يأخذ قلاعها وما حولها من البلاد، فأخذ سنجار، ونصبين، ثم فتح آمد، وحلب، في سنة **٥٧٩** هـ[١]، ونودي بشعار صلاح الدين في حارم، بعد أن ذكـر أن واليها كاتب الفرنج، واستدعاهم «للاستيلاء على حارم بشرط أن يعصموه من الملك الناصر»، فانقض عليه جنده، ونادوا بشعار السلطان صلاح الدين[٢].

رأى القاضي الفاضل في فتح حلب انتظاماً للشمل الذي كان نثيرا، وأصبح المؤمن بأخيه كثيرا، وأصبحت «الألفة واقعة، والمصلحة جامعة، وأشعة أنوار الاتفاق شائعة»[٣].

وتجدر الإشارة هنا إلى الآثار المترتبة على حملة أرناط في سنة **٥٧٨** هـ، التي هاجم فيها مقدسات المسلمين في مكة والمدينة، وهي آثار تمثل بعضها في العمل على توحيد صفوف المسلمين، وتغير شعور صاحبي الموصل وحلب اللذين كانـا يقفـان موقفـاً منـاوئـاً لصـلاح الدين، وقد خجلا من استعانتهما بالصليبيين الذين غزوا مقدساتهم، وتمثل بعضها الآخر في ذيوع شهرة صلاح الدين في العالم الإسلامي، وإثارة الحماسة في نفوس المسلمين للعمل على تحرير بيت المقدس ومقدساته[٤].

وكان على صلاح الدين «تدعيم الوحدة بين القوى الإسلامية في شمال الشام والعراق، وبين القوى الإسلامية في مصر» قبل خوض المعركة الفاصلة مع العـدو الصليبي. وكـان العمـاد الأصفهـاني يرى في اتفاق المواصلة مع

---

(١) انظر: الروضتين ٢/٣١، ٣٢، ٣٨ ـ ٤٥، مضمار الحقائق/ ١١٠، ١١١، ١١٥، ١٣٦ ـ ١٤٠، ١٤٢ ـ ١٤٦، الكامل ١١/٤٩٣ ـ ٤٩٩، النجوم الزاهرة ٦/٢٤ ـ ٢٩، ٩٤، البداية والنهاية ١٢/٣١٣، شفاء القلوب/ ١٠٠ ـ ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥، ١١٤، ١١٦، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٢/٧٠١.

(٢) انظر: الروضتين ٢/٤٦.

(٣) نفسه ٢/٤٣.

(٤) انظر: تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٢/٧٠٧، صلاح الدين ـ جب/ ١٤٣.

السلطان صلاح الدين بركة وخيراً، فكان أول بركاته أن «فتح البيت المقدس وسائر البلاد، وتجددت الفتوح، وانجدت الملائكة والروح، وامتحت باليسرة العسرة، وصحت بحطين الكسرة، وخص الله السلطان بفضيلة فتح القدس»[٢].

★ ★ ★

وكانت وحدة المسلمين تبعث الهلع والفزع في نفوس أعداء الإسلام. يذكر العماد الأصفهاني، في حوادث سنة ٥٨٣ هـ، أنه «لما سمع الفرنج باجتماع كلمة الإسلام عليهم، وسير ذلك الجيش إليهم، علموا أنه قد جاءهم ما لا عهد لهم بمثله، وأن الايمان كله قد برز إلى الشرك كله»[١]. وقد كان الفرنج يعملون على إشاعة الفرقة والانقسام في العالم الإسلامي، ويذكر أن الملك (آموري) صمم على غزو مصر ليحول دون قيام جبهة متحدة دينياً وسياسياً. وقد بصر الغرب بخطر وحدة المسلمين في مصر والشام بقيادة صلاح الدين. وخطط الصليبيون للاستيلاء على مصر بعد الحملة الثالثة، وبذلك يفصمون عرى الوحدة التي قامت بين مصر والشام.

★ ★ ★

وفي سبيل توحيد بلاد المسلمين في مصر والشام والجزيرة، هادن السلطان صلاح الدين الفرنج، ففي سنة ٥٧١ هـ، طلب منه الفرنج الهدنة، فأجابهم بعد أن اشترط عليهم أموراً التزموها، وكانوا قد أصيبوا بضائقة اقتصادية، ولعلهم خافوا من صلاح الدين بعد النصر الذي أحرزه في الشام. ووافق صلاح الدين على طلبهم ليتفرغ لتوحيد بلاد المسلمين. وهادنهم في سنة ٥٧٦ هـ أيضاً. ولم تكن تلك الهدنة إلا كسباً للوقت، وإعداداً لرباط الخيل، وتعبئة للنفوس. ويصور القاضي الفاضل كيف أن المسلمين لم يكونوا راغبين في الهدنة، فقد جاء في إحدى رسائله قوله: «وقد علم الله أنا لهدنتهم كارهون، وفي مصلحة

---

(١) كتاب الروضتين ٢/٦٦.

(٢) نفسه ٢/٧٦.

أهل الإسلام، وفي مصالحهم راغبون»[1].

ويذكر المنصور الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه، في حوادث سنة ٥٧٧ هـ، أن السلطان صلاح الدين كان قد عقد هدنة مع الفرنج، ولكنهم نكثوا قبل أن تنقضي الهدنة. وفي سنة ٥٨١ هـ، هادن صلاح الدين أنطاكية «هدنة آذنت بغبطة الإسلام، وخُلّص من طال إساره من ذوي الإقدام ورجال الشام»، وذلك للتوجه إلى الموصل لتوحيدها مع مصر والشام، كما يقول المنصور الأيوبي نفسه[2].

★★★

عزم صلاح الدين على تجنيد قوات المسلمين للتقدم لمحاربة الصليبيين المحتلين، وتحرير بيت المقدس وغيره من بلاد المسلمين المحتلة. ولكنه لم يواجه العدو المواجهة الحاسمة إلا بعد توحيد بلاد المسلمين في الشام ومصر والجزيرة.

ولم يقتصر صلاح الدين على توحيد بلاد المسلمين سياسياً وعسكرياً، فقد سعى إلى توحيدها فكرياً أيضاً، ورأى أن الوحدة الفكرية ضرورية للوصول إلى الهدف المنشود المتمثل في تحرير بلاد المسلمين. وبذلك يبتعد المجتمع الإسلامي عن عوامل الاضطراب والتفكك في المجالات المختلفة: الدينية، والسياسية، والاجتماعية.

وكان نور الدين زنكي قد صمم على توحيد بلاد المسلمين في المجالات المختلفة، فشجع إنشاء المدارس السنية، وغيرها من المراكز الفكرية المختلفة. ونهج صلاح الدين نهج سلفه نور الدين، فأنشأ الكثير من المدارس للوقوف في وجه المذهب الفاطمي وآثاره الفكرية، والدينية، والسياسية. يذكر

(١) انظر: سنا البرق الشامي/ ١٩٥، الروضتين ١/ ٢٥٢، ٢٧٥، مفرج الكروب ٢/ ٣٥، ٣٦، كنز الدرر (الدر المطلوب) ٧/ ٦٠، الكامل ١١/ ٤٣٥، البداية والنهاية ١٢/ ٢٩١، ٣٠٥، تاريخ الحروب الصليبية ـ رنسيمان ٢/ ٦٩٦، صلاح الدين ـ جب/ ١٢٩، سياسة صلاح الدين/ ١٩٨.

(٢) مضمار الحقائق/ ٦٧، ٢١٥.

(جب) أنه قد وُجدت بذلك «روابط الكيان الموحد بين سائر الدراسات الأخرى، وبين ما تعنى به المدرسة من دراسات أدبية ودينية»[1]. وكان ذلك يرمي إلى استئصال قوة ذلك المذهب سياسياً وفكرياً، والعمل على نشر المذهب السني، وثقافته، وفكره.

وشارك التصوف والمتصوفة في ذلك، وقد كان اتصالهم الشعبي ذا أثر فعال، وكانوا ذوي تأثير ووحي كبير[2].

لقد خلق استيلاء العدو الصليبي على بيت المقدس، وغيره من بلاد المسلمين، توتراً في العالم الإسلامي. وقاد زعامته الفكرية الكُتّاب، والشعراء، والعلماء، وجردوا حملات لإثارة الناس، وتحريضهم، ودفعهم لتحرير البلاد المحتلة. ويبدو هذا جلياً فيما كتبه أصحاب كتب الفضائل، إذ كتبوا العديد من الكتب في فضائل بيت المقدس. ومثل ذلك ما فعله المفسرون، والمحدثون، والفقهاء، في حثهم على إعلان الجهاد. وما أنشده الشعراء داعين إلى تحرير بيت المقدس. وقد كان أولئك العلماء والأدباء يحظون بمكانة كبيرة عند صلاح الدين[3].

إن توحيد البلاد وتحريرها ليس عملاً سياسياً أو عسكرياً فحسب، فهو صراع في العقيدة، وصراع في أمتين في حضارتيهما وثقافتيهما. ولا شك أنه إذا لم يكن تأصيل للأمة المسلمة في عقيدتها، «فلن تكون انتصاراتهم على الخصم سوى أعمال جزئية معرضة للمد والجزر، والتغير والتبدل». ومن هنا تبدو ضرورة الوحدة الفكرية، بل حتميتها، وهي حتمية بناء «أمة مقاتلة تعرف كيف تحمي وجودها العقائدي، وتحفظ شخصيتها الحضارية»[4].

★★★

(١) انظر: دراسات في حضارة الإسلام/ ٢٨، ٣٢.

(٢) انظر: نفسه/ ٣٨، ٣٩.

(٣) انظر: الروضتين ١/٢٦٢، النجوم الزاهرة ٦/٢٤، ٢٥، شذرات الذهب ٤/٢٣٤، سياسة صلاح الدين/ ٥٨، ١٤٧، ١٤٨.

(٤) انظر: نور الدين ـ الرجل والتجربة/ ١٢٩.

ويتردد صدى هذا السعي لتوحيد بلاد المسلمين في الشعر، وهو صدى بارز كما رأيناه بارزاً في النثر، في رسائل القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني وضياء الدين بن الأثير.

لقد شارك الشعراء في الدعوة إلى الوحدة بين مصر، والشام، والجزيرة، وذلك للوقوف صفاً واحداً في وجه العدو الصليبي، وتحرير الأرض، والإنسان. وقد عرف الشعراء أن أهم الأسباب التي أدت إلى احتلال بلاد المسلمين، وعلى رأسها بيت المقدس، تتمثل في تفرق صفوف المسلمين، وانقسامهم، وتنازعهم فيما بينهم. كما تقدم.

ومن أهم الشعراء الذين شاركوا في الدعوة إلى وحدة المسلمين، طلائع بن رُزّيك وأسامة بن منقذ، فقد سعى الشاعران إلى توحيد مصر والشام، وطلب الملك الصالح طلائع بن رزيك من صديقه أسامة بن منقذ أن يسعى لدى نور الدين زنكي من أجل توحيد مصر والشام بقيادة طلائع ونور الدين. وفي هذا المقام، تبادل الشاعران عدداً من الرسائل الشعرية، فقد كتب طلائع رسالة شعرية إلى أسامة ليدعو نور الدين إلى توحيد مصر والشام، وكأنه سفير للملك الصالح طلائع. ولكن، لماذا لم يكتب طلائع إلى نور الدين مباشرة؟ وهل يرجع ذلك إلى مكانة أسامة لدى نور الدين؟ لعل الملك الصالح كان «يرى في أسامة بن منقذ وسيلة للتقرب إلى نور الدين، لعله يدفع أطماع الصليبيين». ولعل سياسة نور الدين كانت توجه عنايتها إلى توحيد الشام، دمشق وحلب. ولذلك لم تكن لدعوة طلائع نتيجة ملموسة[1] كما تقدم. ولعل الملك الصالح والي الطلب من أسامة ليحث نور الدين على مواجهة الصليبيين حتى يقف الشام صخرة صلبة أمامهم تمنعهم من التوغل في مصر، وتحد من أطماعهم فيها[2]. ويشير طلائع نفسه إلى تلك المهمات التي كان يكلف بها أسامة، كما يبدو في قوله[3].

(١) انظر: أسامة بن منقذ ـ محمد أحمد حسين/ ٦٩.

(٢) انظر: أسامة بن منقذ ـ حسن عباس/ ٢٥٩.

(٣) ديوان طلائع (ط النجف) ١٠٣، (ط مصر)/ ٨١، ٨٢.

ونُـنـاجـيكَ بالـمـهـمَّـاتِ إذ أنـ ـتَ بإلـقـائـهـا إلـيك خليقُ
وأهـمُّ الأمـور أمـرُ جهـادِ الـ ـكفـرِ فاسمـع عنـدنـا التحقيقُ
ما لِهـذا الـمُـهـمِّ مْثلُك مجـد الـ ـدين فانـهضْ به فأنـتَ حَقـيقُ
قُلْ له لا عَداه رأيٌ ولا زالَ لديه لكـلِّ خيرٍ طريقُ
أنـتَ في حَسْـم داءِ طاغـية الـكُـفْـ ـار ذاك الـمـرْجُـوُّ والـمـرمـوقُ
فاغـتـنِـمْ بالـجـهـادِ أجْـرَكَ كي تُلفـى رفـيقـاً لهُ ونـعـمَ الـرفـيقُ

وتجـدر الإشـارة إلى أننـا لا نجـد صدى فعلياً في قصيدة أسامة لتوحيد الصفـوف، ولم تتم الـوحـدة بين مصـر والشام آنذاك، ولعل ذلك راجع إلى الخلافات المذهبية والسياسية بين القادة في البلدين[1].

ومما يمثل الدعوة إلى تلك الوحدة، قول طلائع بن زريك مخاطباً أُسامة بن منقذ[2]:

فانـهض الآنَ مُسـرعـاً فبـأمـثـا لك ما زالَ يُدرَك الـمـطلوبُ
والقِ عنـا رسـالـةً عنـد نورالـدّ ين ما في إلـقـائـهـا ما يريبُ
قَصْـدُنـا أن يكـون منّـا ومـنكم أجـل في مسـيرنـا مضـروبُ

ولما أصبحت مصر تابعة لنورالدين، واتحدت بذلك مصر والشام في ظله، بقيادة أسـد الـدين شيركـوه، ومشاركة صلاح الدين، أنشأ العماد الأصفهاني قصيدة يهنىء فيها بملك مصر، ويتغنى بالوحدة بين البلدين، ويدعو فيها إلى غزو الفرنج، وتطهير بيت المقدس، يقول[3]:

بمُلكِ مصـرَ أُهنيء مالـكَ الأمَمِ فاسْعَـدْ وأبشـرِ بنصـر الله عن أمَمِ
أُغْـزُ الفـرنـجَ فهـذا وقتُ غزوهم واحـطمْ جمـوعهم بالذابلِ الحطمِ
وطهِّـر القُـدس من رجسِ الصليب وثـ ـبْ على البغـاث وُثـوبَ الأجـدَل القَطمِ

(١) انظر: الوزارة والوزراء/ ٢٣٠، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية/ ١٤٣، ١٨٣.
(٢) ديوان طلائع/ ٦٤، ديوان أسامة بن منقذ/ ١٦٦.
(٣) ديوان العماد الأصفهاني/ ٣٨٠، ٣٨٢، كتاب الروضتين ١/١٧٤، ١٧٥ أوج ١ ق ٢/٤٤٣، ٤٤٥.

فَمُلْكُ مصرَ ومُلكُ الشام قد نُظِما في عقد عزٍ من الإسلام منتظم

ويعد العماد الأصفهاني توحيد مصر والشام طريقاً إلى فتح بيت المقدس، وكيف لا يكون ذلك، وقد أصبح المسلمون يداً واحدة، وقلباً واحداً، كما يقول في قصيدة أنشأها يمدح أسد الدين شيركوه، ويهنئه بفتح مصر، وتوحيدها مع الشام[1]:

بالجدِ أدْركتَ ما أدْرَكتَ لا اللعبِ كمْ راحةٍ جنيتْ من دوحة التعب
فتحتَ مصرَ وأرجو أنْ تصيرَ بها مُيَسّراً فتح بيت القدس عن كَثبِ
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من فتح البلاد فَبادِرْ نحوَها وثبِ

ويحث الحافظ أبوالقاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر نورالدين على تحرير بيت المقدس ومقدساته، بعد أن أصبحت حلب، ودمشق، ومصر، والموصل، تابعة له، كما يبدو في قصيدة قالها في نورالدين مادحاً ومهنئاً، ومبيناً أنه لا عذر له بعد توحيد بلاد المسلمين، إذا لم يتوجه إلى تحرير بيت المقدس[2]:

ولستَ تُعْذَر في تركِ الجهادِ وقد أصبحتَ تملكُ من مصر إلى حلب
وصاحب الموْصلِ الفيحاء مُمْتثِلٌ لما تُريدُ فبادِرْ فجْأة النُوَبِ

---

(١) ديوان العماد الأصفهاني/ ٧٩، ٨٠، كتاب الروضتين ١/١٥٩، أوج ١ ق ٢/٤٠٣، ٤٠٤، مفرج الكروب ١/١٦٦، ١٦٧، تاريخ ابن الفرات ـ م ٤ ج ١/٤٥، سنا البرق الشامي/ ٤١، المختصر ٣/٤٦، تتمة المختصر ٢/١١٦، شفاء القلوب/ ٤٢.

(٢) خريدة القصر ـ قسم شعراء الشام ١/٢٧٧، كتاب الروضتين ١/١٦٠ أوج ١ ق ٢/٤٠٥.